



مُعْجَمُ الْبَابِطِينِ

لشعراء العربية في عصر الدول والإمارات

التصدير

هذا المعجمُ فتُح من فتوحات مؤسستنا بإنجاز الحلقة الثالثة من مشروعها الثقافي الطامح إلى إضاءة المشهد الشعري العربي على امتداده الشاسع في الزمان والمكان.

كانت الحلقة الأولى (معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين) هي الأيسر، إذ كان الشعراء هم الشهود على أنفسهم وما أنجزوه، وكانت المؤسسة هي المتلقي والمنظم لهذه الشهادات الحية.

وكانت الحلقة الثانية (معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين) انتقالاً من الراهن إلى الماضي الأقرب، وكانت ذكريات الشعراء الغائبين مازالت ماثلة في وجدان أقربيائهم وأصدقائهم لتكون شهاداتهم وما آل إليهم من إرث شعري هي ما شكلت معالم الصورة التي رسمتها المؤسسة للشعراء في هذا العصر.

ولكن الحلقة الثالثة (معجم البابطين لشعراء العربية في عصر الدول والإمارات) كانت هي الأكثر صعوبةً والأشدَّ عناءً؛ إذ انقطعت الصلة بين الشعراء الغائبين في طيات زمن بعيد وبين الأحياء، ولم يعد أمام الباحثين ما يستندون إليه إلا ما كتبه هؤلاء عن أنفسهم، أو ما كُتِب عنهم، صارت المدونة الكتابية على تنوعها من أدبية وتاريخية وفقهية ولغوية وعلمية، هي ما تشهد لهؤلاء الغائبين، وإن كانت هذه الشهادة يعترئها في بعض الأحيان النقص أو الاضطراب أو التحريف.

عشر سنوات من جهد دؤوب قامت به نخبة من الباحثين لاكتشاف ما لم يكتشف، وللتعريف بما لم يعرف من قبل، كانوا أمام منطقة شبه مجهولة لم يكلف أحد من قبل نفسه فض مغالقتها واستنطاق مكنوناتها، وظل الشعر في هذه الفترة الأكثر غياباً عن المتابعة والاستكشاف إلا من بعض أطرافه الميسورة وبعض أعلامه البارزين. كان العمل أشبه بمغامرة، ولكنها ضرورية لتخليص حيز كبير من تراثنا من عتمة المجهول وإبرازه للعيان، وكان على فريق العمل السير في طرق غير ممهدة، والعبور في أرجاء معتمة، ولم يترك هذا الفريق أي مدونة تتعلق بالعصر

الوسيط، في حدود المُتَّاح، تشير إلى أي منجز شعري إلا أنصتوا إليها وأخضعوها لملكة النقد الصارمة، وتم وضع ما يُطمأن إليه في منظومة محكمة، ثم خضعت هذه المنظومة للمراجعة، ثم لمراجعة المراجعة، لكي لا يتسلل إلى هذا الإنجاز الكبير ما يشوه دقته وموضوعيته.

وهذا الجهد الشاق أفضى بنا إلى الشعور بالراحة الكبرى، تلك الراحة التي أشار إليها

الشاعر الكبير أبو تمام في بيته الشهير:

بَصَرْتُ بِالرَّاحَةِ الْكُبْرَى فَلَمْ تَرَهَا

تُنَالُ إِلَّا عَلَى جِسْرِ مِنَ التَّعَبِ

كان العصر الوسيط الذي افتتح بسقوط حضرة العباسيين، وامتد حتى دخول أول غازٍ أوروبي إلى القاهرة المعز، هو العصر الأكثر اضطراباً وتمزقاً وانغلاقاً، وبين هذين الحدثين الصادمين تتابعت على أرض العرب حروب متتالية وصراعات لا تهدأ على السلطة، ومجاعات وموجات من الطاعون.

وكان الأخطر من كل ذلك ما واجهته الأمة من تهديد لوجودها ذاته ولتراثها؛ إذ اجتمع عليها في آن واحد إعصاران بشريان مدمران، أحدهما أتى من الشرق، ضم حشوداً غفيرة من قبائل متوحشة متعطشة إلى تدمير كل ما تصادفه في طريقها، وقدم الآخر من الغرب وتمثل في موجات متتالية لا حصر لها من الغزاة يدفعهم التعصب الديني الأعمى، ولكن الأمة العربية تعالت على جراحها وتمكنت من صد هؤلاء الغزاة وأعدت الصليبيين إلى بلادهم يحملون معهم عبق الشرق وتسامحه، وردت المغول إلى الشرق بعد أن اعتنقوا الإسلام، الدين الذي قدموا لاجتثاثه.

كانت الأمة العربية مستمرة في صنع الحياة، تبني المدارس والمساجد والمستشفيات، وظلت محلات الورّاقين غاصّة بنسّاخ الكتب ومتسوقها، واستمرّ الشعرُ مُعبِّراً عن نبض الأمة وضميرها، وهواجسها وأحلامها، وظل وسط هذه الفوضى العارمة الصوت الموحد الذي يتردد صداه في أرجاء الأرض العربية الممتدة، بينما تعددت الأصوات وتصادمت في مجال السلطة والدين والقومية، وظل التعامل معه في هذا العصر الأكثر إشكالية بين عصور الشعر العربي، ولم تكن تلك الإشكالية نابعة فقط من تدمير قسط لا بأس به من تراث هذه الفترة، وغيابه عن المشهد، أو بتبعثر ما تبقى منه بين المكتبات على امتداد العالم واستحالة وضع مجموع ما تبقى تحت أعين الباحثين، بل إن ما أمكن الوصول إليه من هذا التراث كان يحفل بالمزلق



مُعْجَمُ الْبَابِطِينَ

لشعراء العربية في عصر الدول والإمارات

والعقبات، فتعدد صيغ الاسم لكل شاعر، والاختلاف بين المصادر في هذه الصيغ، وكثرة الكنى والألقاب والأنساب، والتداخل بين الأسماء المتشابهة، والتضارب في المعلومات، والتحريف في بعض المخطوطات من قبل نساخ غير مؤهلين، وتعثّر قراءة بعض المخطوطات بسبب رداءة الخط أو تأكله، كل ذلك جعل مهمة البحث أشبه بالسير في أرض مزروعة بالألغام وكان على الباحث الاحتراس الدائم حتى لا يقع فريسة لوهم أو لتحريف أو لتزوير.

ولكننا ورغم كل المعوقات والإشكالات خرجنا من هذه المغامرة بحصاد وفير، ومن حقنا أن نشعر بالرضا، وقد أعدنا إلى الذاكرة أكثر من تسعة آلاف شاعر استقذنا الكثير منهم من عتمة الغياب وأخرجنا إلى العيان الكثير من النصوص الشعرية بعد أن أزلنا عن صفحاتها ما لحقها من ضياع في الزمن، ومع ضخامة هذا الإنجاز لا ندعي أننا أحطنا بالمنتج الشعري في هذا العصر كاملاً، فلا تزال أطراف واسعة من هذا الإرث في طي المجهول.

وإذ نضع هذا المنجز أمام بصر النقاد وبصيرتهم فإننا نأمل أن يستخلصوا منه الصورة الصحيحة لشعر هذه المرحلة بعيداً عن الأحكام السريعة، والمعانيات الجزئية التي كثيراً ما ظلمت هذه الحقبة من تاريخنا.

وإذ يغمرنا الاعتزاز والفخر بهذا الإنجاز الكبير فإننا نعد القراء العرب بمزيد من الفتوح لنحيط بالمدونة الشعرية منذ أول بزوغها على أرض العرب وحتى عصرنا الراهن.

والله من وراء القصد.

رئيس مجلس الأمناء

رئيس الهيئة الاستشارية للمعجم

عبدالعزیز سعود البابطين

الكويت في ٦ من ذي القعدة ١٤٤٠ هـ

الموافق ٩ من يوليو ٢٠١٩ م





مُعْجَمُ الْبَابِطِينِ

لشعراء العربية في عصر الدول والإمارات

مدخل إلى معجم البابطين لشعراء العربية في عصر الدول والإمارات

(٦٥٦ - ١٢١٥ هـ / ١٢٥٨ - ١٨٠٠ م)

بصدور معجم البابطين لشعراء العربية في عصر الدول والإمارات (٦٥٦ - ١٢١٥ هـ / ١٢٥٨ - ١٨٠٠ م) تفتح مؤسسة عبدالعزيز سعود البابطين الثقافية آفاقاً معرفية جديدة باتجاه تراث الأدب العربي، وتكشف عن صفحات مطوية من كنوزه وآثاره وروائعه، وتقدم إنجازاً مبهراً يضاف إلى رصيد عطاءاتها الفكرية والإبداعية التي تمثل جانباً بارزاً من جوانب رسالتها الواعية إزاء هويتنا الحضارية الأصيلة، وجهودها الصادقة من أجل تحقيق طموحاتنا الثقافية الراهنة، وفي الصدارة منها صناعة عمل معجمي عملاق يرصد حركة الشعر العربي عبر العصور في مدونة شاملة تجمع فرائد الشعر العربي وتجاريه، وتحصر شخوصه وأفراده الذين احتفظت ذاكرتنا الثقافية بأسمائهم وأعمالهم في مختلف أوعيتها وشتى مساربها.

وفي سنة إحدى وتسعين وتسعمئة وألف من الميلاد بدأ الحلم الذي طالما راود المثقفين العرب يعرف طريقه إلى عالم الوجود؛ حينما أعلن الشاعر عبدالعزيز سعود البابطين فكرة مشروعه الرائد بإعداد معاجم لشعراء العربية، تسجل سيرهم وإبداعاتهم من العصر الحاضر إلى أقدم عهد عرفه الشعر العربي قبل الإسلام، منطلقاً في هذا العمل التاريخي الفريد من رؤية لا تنظر إلى الشعر على أنه مغامرة في اللغة أو إبداع في التصوير أو تجريب في التشكيل فحسب، وإنما ترى في الشعر مع ذلك كله صورة عصره وصدى مجتمعه، ونبض الإنسان وآماله وأحلامه ووقائع حياته وموقفه من العالم في كل زمان وكل مكان.

وهي بلا ريب رؤية فكرية دقيقة تنفذ إلى أعماق الشعر من حيث طبيعة الدور الذي يقوم به في حياة الناس، وتقرب من حقيقة وجوده من حيث هو نشاط بشري حي متفاعل مع كل ما يمثله الإنسان ويرتبط به من روح وجسد، وعقل وعاطفة، ووعي وسلوك.

وهي رؤية موضوعية تضعنا مباشرة أمام تجليات الشعر وطبيعته التي تتعدد أشكالها وتباين أدوارها بين الجمالية والإمتاعية من جهة، والوظيفية والمعرفية من جهة أخرى؛ فلم تكن ذاكرة الأمة الجمعية لتحفظ ما حفظته لمئات السنوات من نصوص الأدب وإبداعاته لأنها محض قطع فنية ممتازة فحسب، بل لأن هذه

الذاكرة الواعية وضعت في حسابها كذلك ما تمثله تلك النصوص، بوصفها ديوان الحياة العربية من قيمة وثاقية بالغة الخطورة والأهمية، وما تقوم به من دور مؤثر في سد تلك الفراغات الوسيعة التي أحدثها انشغال المدونة التاريخية بالنخبة في كل عصر، وأوجدها تركيز هذه المدونة على وقائع الملوك والأمراء والقواد والوزراء، وغيرهم من ذوي النفوذ والسلطان ومن اتصل بهم؛ مستغنية بأخبار هؤلاء في جدهم وهزلهم عن أخبار من سواهم من طبقات المجتمع وفتاته وطوائفه، حتى لكأن التاريخ قد أدار ظهره تمامًا أو كاد لعامة الناس، مهملاً أحوالهم ومواقفهم وحيواتهم؛ بكل ما فيها من عواطف وأفكار وعقائد وانشغالات وعادات وممارسات وأحداث التفت إليها الشعر وأدرك ما فيها من كثافة وغنى واتساق مع منطلق الحياة وسياقاتها، واستطاع أن يلتقطها ويحتفظ بها في مخيلته غير آبه بموقعها الهامشي من منظومة الثقافة الرسمية الآنية.

لقد سبق الشعر علم الاجتماع والحضارة إلى كشف تفاصيل حياة الإنسان العادي، وتسجيل منجزاتها وانكساراتها، وتصوير ملامحها وانفعالاتها في عظمتها وحقارتها وفي تعقيدها وبساطتها؛ حتى لكأن الشعر موكل بالاعتناء بما أهمله التاريخ، وكأنه يسعى إلى إقامة لون من التوازن العادل بين أهل القمة وأهل القاع، أو فلنقل بين تعبير أقطابه من فحول الشعراء المبدعين عن الملوك ومن اتصل بهم من خواص المجتمع، وتعبير مريديه من الشعراء المعبرين عن بسطاء الناس وعوامهم ومن دونهم من أبناء المجتمع.

وأغلب الظن أن هذا التصور الشامل لطبيعة الشعر ووظيفته كان مستند الشاعر الأستاذ عبدالعزيز سعود البابطين حينما أراد للمعجم أن يسلك طريق الجمع والاستقصاء لا طريق الاختيار والانتقاء، وهو الأساس المكين الذي انبنت عليه شخصية معاجم البابطين الشعرية وهويتها على نحو ما يجد القارئ في «معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين» في طبعاته الثلاث (١٩٩٥م، ٢٠٠٢م، ٢٠١٣م) وبأجزائه التسعة التي تشتمل على أربعة عشر ومئتين وثلاثة آلاف شاعر (٣٢١٤)؛ وفي «معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين» (٢٠٠٨م) بأجزائه الخمسة والعشرين التي تشتمل على ثمانية آلاف شاعر (٨٠٠٠)؛ و«معجم البابطين لشعراء العربية في عصر الدول والإمارات ٦٥٦-١٢١٥هـ / ١٢٥٨-١٨٠٠م» (٢٠١٩م) بأجزائه الخمسة والعشرين التي تشتمل على حوالي خمسمئة وتسعة آلاف شاعر (٩٥٠٠).

فلم تقتصر معاجم البابطين الشعرية، في سبيل سعيها إلى رسم صورة أقرب ما تكون إلى الاكتمال عن المشهد الشعري في كل عصر من العصور على الاحتفاء بأصحاب المواهب الفذة والتجارب اللافتة فحسب، وإنما اتسعت مجلداتها لتحتوي جميع الذين حاولوا التعبير بالشعر عن أنفسهم وعن مواقفهم إزاء كل ما حولهم وكل من حولهم، دون تمييز في حق الانتساب إلى المعجم والانتماء إلى شعرائه الخالدين بين أولئك الشعراء الأقطاب وهؤلاء الشعراء المريدين.

وليس يخفى حضور هذه الرؤية الجامعة المستقصية واستقرارها في وجدان كل من يقرأ معجم البابطين لشعراء العربية في عصر الدول والإمارات الذي يغطي فترة زمنية ثرية تمتد بين حادثتين تاريخيتين



مُعْجَمُ الْبَابِطِينِ

لشعراء العربية في عصر الدول والإمارات

مؤثرتين، كان لكل واحدة منهما أثر بعيد الخطر في كثير من أوجه الحياة في شتى بقاع العالم الإسلامي؛ إذ بدأت هذه الفترة منذ لحظة اجتياح التتار بغداد، وكانت نهايتها مع حملة الفرنسيين على مصر والشام التي يعدها المؤرخون خاتمة مرحلة العصور الوسطى في تاريخ الحضارة العربية.

وهي فترة زمنية طويلة ناهزت الستين وخمسمئة سنة ما بين سنة ست وخمسين وستمئة إلى سنة خمس عشرة ومئتين وألف من الهجرة؛ شهدت خلالها المجتمعات العربية والإسلامية جملة من التغيرات والتحويلات التي أسهمت بصورة واسعة في تبدل كثير من مناحي الحياة ووجوهها في هذه المجتمعات.

فكان سقوط بغداد إيذاناً بنهاية حقبة الخلافة في تاريخ الأمة الإسلامية وترسيخ حالة التشرذم السياسي التي عاشتها هذه الأمة منذ أواخر القرن الثالث الهجري، الذي شهد بوادر انقسام الدولة الإسلامية الكبرى إلى دويلات متفرقة، بعد تراخي قبضة الدولة العباسية وزوال نفوذها الفعلي على الأمصار، حتى لم يعد من سلطة بيد خلفائها غير بقايا هيبة دينية زائفة وشرعية اسمية واهية، كان حكام تلك الدويلات يستندون إليها في تبرير سلطتهم على ما تحت أيديهم من ممالك الخلافة المنتهية في وسط العالم الإسلامي ومشرقه على الأقل، وهو جعل من وجود الخلافة الشكلي في بغداد ضرورة اتفق هؤلاء الحكام على اتخاذها شعاراً للحفاظ على فكرة الدولة الإسلامية الواحدة التي مثل مقتل الخليفة المستعصم على يد المغول إعلاناً رسمياً عن أفولها النهائي.

وعلى الرغم مما قامت به بعض النخب السياسية من جهود لاستعادة الخلافة ولو في مظهرها الديني على الأقل؛ كتلك الخطوة المراوغة التي قام بها الظاهر بيبرس سنة ثمان وخمسين وستمئة من الهجرة لإعادة إحياء الخلافة العباسية في القاهرة، أو تلك المساعي اليائسة التي قام بها بعض المنتسبين إلى البيت العلوي في بعض بلدان المغرب أو في بعض أنحاء اليمن لتأسيس خلافة بديلة فإن بإمكاننا أن نتخذ من كارثة سقوط بغداد بداية حقيقية لحقبة تاريخية نطلق عليها فعلياً في ثقة واطمئنان علميين مصطلح «عصر الدول والإمارات»، بعد أن تفتت الدولة الإسلامية الكبرى بشكل رسمي معلن إلى عدد من الدويلات والإمارات التي لم يكن يستقر أمر دولة منها، حتى تتقلب عليها دولة أخرى، لتسقطها وتترزع عنها سلطانها.

وبتعدد هذه الدويلات وتعاقبها تعددت حواضر العالم الإسلامي وعواصمه ومدنه الكبرى التي حافظت بصورة طبعية على الشكل التقليدي للبنية الحضرية للمدينة في العصور الوسطى بتكوينها الإطاري ذي الأسوار والقلاع الحربية التي اقتضتها النزاعات المستمرة على الحكم بين زعماء هذه المدن، وأوجبها تعرض أطراف العالم الإسلامي وثغوره إلى مطامع الدول الأجنبية الراغبة في الحد من سيطرة الممالك الإسلامية على مفاصل حركة الملاحة والتجارة العالمية التي لعبت عوائدها الوفيرة دوراً هائلاً في تحقيق ظفرات عمرانية مبهرة في المدن الإسلامية الكبرى التي شهدت خلال هذا العصر توسعاً غير مسبوق في

بناء القصور والمساجد والمدارس والربط والبيمارستانات، مع الوضع في الحسبان أن ذلك التطور الكبير الذي عرفته البنية المعمارية للمدينة الإسلامية آنذاك، لم يغير شيئاً ذا بالٍ من طبيعة البنية الاجتماعية ونظامها الطبقي الذي منح النخب والخواص فرصة الاستفادة بآثار هذه الطفرات العمرانية، والتمتع بالعديد من الامتيازات وأسباب الرخاء والرفاهية دون غيرها من طبقات المجتمع.

ولم يكن الشعر، شأنه شأن غيره من ألوان الفنون والآداب بمعزل عن هذه التحولات والتغيرات التي أصابت المجتمع الإسلامي في ذلك العصر، وأثرت في إنتاجه الفكري ومصنوعاته الثقافية التي تعد في حقيقتها، صدى للواقع الحضاري للمجتمع، وتعبيراً عن الأفراد والجماعات التي تمثل في تداخلها وتعقد علاقاتها، الواقع الإنساني لذلك المجتمع.

فكان من الطبعي أن يسفر زوال الخلافة وانحلال السلطة السياسية المركزية عن توسع شديد في نشاط الحركة الشعرية التي توزعت مظاهرها بين الحواضر المختلفة، وتعددت فعاليتها بتعدد رعاتها من حكام هذه الحواضر ووجهائها ورؤساء البيوتات الكبرى وزعماء الطوائف والمذاهب الذين حاولوا اجتذاب الشعراء واستغلال الشعر وتوظيفه إعلامياً للترويج لأفكارهم ومعتقداتهم وتبرير أعمالهم؛ على أمل الاستفادة من طاقات الشعر الحجاجية والإقناعية، وقدراته التاريخية على التأثير في المتلقي؛ وهو ما أدى بطبيعة الحال إلى زيادة ملحوظة في الإنتاج الكمي للشعر خلال هذا الفترة الطويلة على امتداد رقعة العالم الإسلامي الواسعة.

وعلى الرغم من تمدد الحركة الشعرية في عصر الدول والإمارات، واتساعها وكثافة نتاجها الفني وتنوعه؛ فإن أغلب أساتذة الأدب العربي ومؤرخيه متفقون على أن الاستجابة العامة للفن الشعري وتقديره على مختلف المستويات قد تراجعت إلى حد كبير عما كانت عليه في العصر العباسي حتى القرن الرابع الهجري على أقل تقدير.

وهم يردون ذلك إلى أسباب عديدة يأتي في مقدمتها عندهم، ما حققه فن الكتابة من نجاحات حاسمة على مستوى الصراع بين الأجناس الأدبية، وما ظفر به من ذيوع واسع على كافة أصعدة التلقي النخبوية والشعبية، على نحو سمح للنثر، خاصة في ظل ندرة المواهب الشعرية المنفردة أن يلعب الدور الذي طالما لعبه الشعر لدى الطبقات الحاكمة التي انصرفت بشكل متزايد إلى الاعتماد في التعبير عن مواقفها على الرسائل والتوقعات وغيرها من أشكال الكتابة الديوانية؛ ولدى الطبقات الاجتماعية العامة التي أصبحت هي الأخرى أكثر انجذاباً إلى الإخوانيات والنوادر والمقامات والسير والمنامات وغيرها من أشكال السرد الأدبي.

ومما ساعد على ذلك في رأيهم ظهور ألوان جديدة من الإبداع الشعري، أكثر التصاقاً بالجماهير، وأكثر قدرة على التعبير عنها، وأليق بروح العصر من الشكل الموروث للشعر العربي الذي عدّه أدباء العصر



مُعْجَمُ الْبَابِطِينِ

لشعراء العربية في عصر الدول والإمارات

ومنظروهم أنفسهم نمطاً من أنماط الشعر أطلقوا عليه مصطلح «القريض»، على نحو ما صنع صفي الدين الحلبي في كتابه «العاطل الحالي والمرخص الغالي»؛ ففقد شعر القصيد بذلك انفراداً بالتربع على عرش الشعر العربية الذي احتفظ به لما يزيد على عشرة قرون، وأصبح مجرد نسق فني من أنساق الكتابة الشعرية إلى جانب فنون أخرى كالموشح، والزجل، والدوبيت، والبليق، والكان وكان، والقوما، والموالي؛ وهي فنون تنوعت مستوياتها اللغوية بين الفصيح والعامي، وعكست بوضوح مدى ما طرأ على الذوق العام من تغير نتيجة الحضور القوي للثقافات المحلية المعاشة التي تمثلها هذه الفنون، وطغيانها على الثقافة الرسمية الموروثة التي يمثلها الشعر العربي في صورته التقليدية.

وربما كان في ذلك ما دفع أساتذة البحث الأدبي إلى الالتفات إلى دور المتلقي في تحديد وضع الشعر ومكانته على أساس من قدرته على التفاعل والتأثير بعد أن غلبت العُجْمَة على حكام هذا العصر فانصرفوا تقريباً عن الانشغال بالشعر والاحتفال به؛ وتراجع الذوق الفني بين فئات المجتمع وطوائفه المختلفة، وانحصرت الثقافة الشائعة في عاديات الحياة الاجتماعية، وفشت اللهجات العامية والدارجة على نحو اضطر الشعراء، خاصة في ظل ضعف السليقة الفنية، إلى صياغة أشعارهم في صورة تتناسب مع قدرة المتلقي على التواصل مع النص والتعاطي معه.

فابتعد الشعر حسبما ذهب أولئك الأساتذة؛ عن الوقوع على جوهر الإنسان وقضايا وجوده ومعالم حياته وواقعه النفسي. واقتصر على التعبير عن الشكليات الخارجية الساذجة، والشطحات الفارغة، مفرطاً في نزوعه إلى الاعتماد على الزخارف الشكلية التافهة والألعاب اللفظية العقيمة التي فرغت الشعر من رؤيته ورسالته في آن واحد، وأفقدته روحه وحيويته معاً، وحوّلته إلى محض تمارين لغوية وثقافية تفتقر إلى القيمة الفنية بعد أن اختفت أو كادت أن تختفي، طبقة الشعراء المحترفين الذين أوقفوا حيواتهم على الشعر، وأخلصوا أنفسهم لإبداعه وتجويد صنعه، واتخذوه مشروعاً فنياً وحياتياً انصرفوا إليه بكلياتهم. لقد أصبح الشعر هواية ثقافية يمارسها بعض الخواص من الأمراء والقادة والوزراء والكتاب والقضاة والفقهاء، ويتزين بها عوام الناس من أصحاب الحرف والصناعات الذين اندفع كثير منهم إلى التكسب والاستجداء الرخيص على نحو أودى بالشعر إلى مزيد من النكوص والتراجع.

وربما يصعب على المنصف أن يجحد وجود كثير من هذه الظواهر التي وسم بها أساتذة الأدب الشعر في عصر الدول والإمارات؛ حتى جعله بعضهم عصر انحطاط الأدب العربي وتأخره وجموده، وألصقوا بنتاجه سمات التقليد والتكلف والزيغ، وغيرها من الأوصاف والمسميات المجحفة. غير أن الموضوعية تقتضي ضرورة أن تكون هذه التصورات والأحكام المطلقة مؤسسة على استقرار عام وشامل لنتاج العصر وموروثه الشعري، لا أن تقتصر على جانب واحد، أو جوانب معدودة من ذلك التراث العريض الذي أنتجته الثقافة العربية على مدى نحو ستة قرون.

وهنا تتجلى قيمة هذا العمل التاريخي الضخم الذي اضطلعت به مؤسسة عبدالعزيز سعود البابطين الثقافية، ملتزمة في صناعته وإعداده بتلك الرؤية الاستقصائية الجامعة التي اختارها رئيس المؤسسة ورئيس هيئة المعجم الشاعر عبدالعزيز سعود البابطين، وجعلها أساساً حاكماً لرسم معالم لوحة الشعر العربي في عصر الدول والإمارات، على نحو يسمح باتخاذ مواقف أقرب إلى الدقة الموضوعية والأمانة العلمية إزاء فن الشعر في ذلك العصر، وبما يمنح الباحثين الذين لا يستسلمون لسطوة المقولات الشائعة فرصة إنصاف شعرائه ووضعهم في مكانتهم الحقيقية من تاريخ الشعر العربي، وإعادة النظر فيما ران على إنتاجهم الفني من أحكام يلوكها الكثيرون اعتماداً على لقطات ومشاهد مجتزأة من تراث هذا العصر، يعمل المعجم الذي بين أيدينا على استكمال تفاصيلها وقسماتها عبر أضلاعه المعرفية الثلاثة التي تركز عليها بنية الترجمة في معاجم البابطين الشعرية: السيرة / النص / المصدر، وما تمثله هذه الأضلاع من خصوصية شخصية هذه المعاجم، وتفردتها بإحراز نسق ثقافي متكامل يتحرى البعد البيوجرافي الذي يرسم ملامح السيرة الشخصية لكل واحد من شعراء المعجم، والبعد الأنطولوجي الذي ينتخب فرائد إنتاج كل شاعر ومختارات أشعاره، والبعد البيلوجرافي الذي يرصد المصدرية التي اعتمد عليها المعجم في إعداد سير شعرائه واختيار نصوصهم، بما يكشف بصورة عامة عن المنظومة المرجعية للشعر في ذلك العصر.

وليس من شك في أن أهمية النص الشعري في معاجم البابطين ترجع إلى أنه العنصر الحاسم في تسريب هذه المعاجم وتصنيفها وتحديد هويتها المتميزة عن معاجم الأعلام العامة أو معاجم الأدباء الخاصة. فهي أكثر إيجالاً في التحدد والانفتاح في الوقت ذاته، باشتغالها على أصحاب الإنتاج الشعري وفق نظرية مرجعية تجعل مبرر التفات صناع المعجم وقراءه إلى شخصية ما ومحاولة التعرف على مراحل حياتها ومصادر دراستها؛ منحصراً فيما أسهمت به هذه الشخصية، أيّاً ما كانت فنّتها وهويتها من نتاج شعري، بقطع النظر عن حجم هذا النتاج وقيّمته.

وعلى أساس من هذا التصور الفاصل تحددت بشكل ملموس غاية المعجم المعرفية الرئيسية فيما يقدمه من زخم نصي وافر يكشف بطبيعة الحال عن لائحة السمات التشكيلية والموضوعية المائزة في شعر عصره، وهو ما لا يمكن استيعابه بالضرورة دون معرفة السياقات الفردية والجماعية التي تتعلق بهذه النصوص وتمسك رؤيتها وتفصح عن علاقتها بعناصر أدائها الفني، على نحو تتحدد معه القيمة المعرفية للسرديات التاريخية التي يقدمها المعجم عن شعراء فترته الزمنية، وهو ما يحدد من جهة ثالثة أهمية المنابع المرجعية التي يستقي منها المعجم المادة العلمية المستهدفة في تشكيل بنيته المعرفية بمدخلها وموادها وما تشتمل عليه من أشعار وأخبار.

وإذا كانت مصادر معجم البابطين لشعراء العربية في عصر الدول والإمارات قد أربت على ألفي كتاب، فإن نصف هذه المصادر تقريباً ممّا يرجع زمن تأليفه إلى الفترة التي ينتمي إليها شعراء المعجم



مُعْجَمُ الْبَابِطِينِ

لشعراء العربية في عصر الدول والإمارات

أنفسهم ما بين القرن السابع إلى القرن الثالث عشر من الهجرة، وهي الفترة التي بلغ فيها العقل العربي أوج عنايته بالتصنيف التاريخي، وقمة انشغاله بالتصنيف في تراجم الأعلام التي تعد أحد تنوعات السرد التاريخي بما تشتمل عليه من حشد مكثف لسرديات متعددة تعكس في بعض جوانبها تحولات الشبكة الاجتماعية في عموميتها التاريخية، وتعكس في أحيان أخرى واقعاً اجتماعياً محدداً في بيئة زمانية أو مكانية أو ثقافية بعينها، كما تعكس في جميع الأحيان ما تميزت به مؤلفات العصر من تضائيف معرفي سمح بحضور النصوص الشعرية الدالة في ثنايا السرد التاريخي، في الوقت الذي سمح فيه باكتشاف الإشارات التاريخية الكاشفة في سياق رواية النصوص الشعرية وعرضها.

وقد كان على مصنفي تراجم الأعلام؛ نتيجة تنوع منظوراتهم إلى الأحداث السردية، واختلاف مقاصدهم في كيفية تناولها وتقديمها، وما اصطدموا به من كثافة المادة المعرفية وتداخلها والتباسها أن يستعينوا بالصناعة المعجمية من أجل إحكام السيطرة على هذه المادة المستفيضة؛ وربما كان في ذلك ما يوحي بأن مصنفي تراجم الأعلام كانوا يعالجون متونهم على أنها علامات ذات إطار منظومي خاص، وليست مجرد حكايات سردية فحسب؛ وهو ما يظهر بوضوح في اشتراك متون التراجم في سائر كتب الأعلام القديمة والحديثة في مجموعة من العناصر الرئيسية التي يصعب أن تخلو منها ترجمة؛ من مثل: نسبة العلم، وعصره أو تاريخ مولده أو تاريخ وفاته ما أمكن، وموضع ميلاده، وموضع نشأته، وطبيعة ثقافته، والبلدان التي ارتحل إليها، والمناصب التي تقلدها، والأعمال التي قام بها، وما قدمه من إنتاج فكري أو علمي أو أدبي، فضلاً عن بعض سماته الشخصية وصفاته الخلقية إن كانت معروفة.

وأغلب الظن أن تواتر هذه العناصر التي تتألف منها متون السير الشخصية في ذهن صناع التراجم، ونظرتهم إليها على أنها علامات دالة قد دفعهم إلى اتخاذ كل عنصر منها ليكون مدخلاً للتصنيف في تراجم الأعلام. وفي ذلك ما يكشف بنصاعة عن كثير من جوانب الشبكة المعرفية التي حكمت عملية صناعة مؤلفات الأعلام على مدار هذه الفترة الزمنية الطويلة، والتي ربما لا تزال تتحكم إلى الآن بشكل ما في آليات هذه الصناعة ومنهجيات بعض عمليات البحث العلمي، عبر عدد من البنى العلائقية المتنوعة لفئات التصنيف في تراجم الأعلام يأتي في مقدمتها التصنيف على الأساس الزمني من خلال ما يضاف من سير وأخبار في كتب التاريخ العامة، أو ما يتأسس على معيار زمني متحرك في كتب الوفيات وتوابعها، أو ما يختص بشخصيات قرن بعينه، أو عصر بعينه غالباً ما يكون هو عصر المؤلف نفسه.

وتلعب البيئة المكانية الدور نفسه الذي لعبته البيئة الزمانية في اتخاذها أساساً لعلاقة جامعة في التصنيف من خلال انصراف بعض المؤلفات إلى ترجمة أعلام إقليم بعينه، حتى أن بعض مصنفي تراجم الأعلام قد عمدوا إلى استثمار هذه العلاقة في حدودها القصوى، فاخصوا مصنفاتهم بأطر مكانية

أكثر تحديداً كالترجمة لأعلام مدن بعينها، بل ربما أوغل بعضهم في قصر مصنفه على حيز مكاني بالغ الانحصار على نحو ما نجد في تراجم أعلام بعض الربط والزوايا وغيرها من الكيانات المكانية المحدودة. واتخذت كتب الطبقات بدورها عدداً من العلاقات الجامعة ركائزاً للتصنيف المعجمي في سير الأعلام وتراجمهم، منها ما اعتمد على العلاقات المذهبية كالزيدية والحنفية والشافعية وغيرها، ومنها ما تأسس على علاقات أصحاب العلوم والصناعات كالنحاة واللغويين والأطباء والفلكيين وغيرهم، ومنها ما تعلق بأعلام المناصب والوظائف العامة كالمملوك والوزراء والقضاة وغيرهم.

ولم يهمل صناع التراجم في ذلك العصر ألوان الحضور الثقافي للأعلام ومراحل تشكلها؛ من تكوين معرفي، وإنتاج فكري، وتأثير علمي، وأسسوا على كل واحد من هذه المراحل بنية علائقية لمجموعة من المصنفات في تراجم الأعلام؛ مثل فهارس الأثبات ومعاجم الشيوخ وغيرها من المؤلفات التي اعتمدت المادة المصدرية وعلاقات التلمذ والمشيخة وشيخة للعلاقات الجامعة في التصنيف المعجمي.

وكان من الطبيعي بسبب اتساع المادة العلمية لموضوعات هذه العلاقات، وكثافة المفردات التي تشتمل عليها بصورة مفرطة أن تشهد تلك الفترة حركة نقدية كبيرة تتعقب تلك المؤلفات المعجمية وتستكمل نواقصها، على نحو أدى إلى ظهور ألوان من كتب التتميم والتكميل التي اتخذ لها أصحابها عنوانات دالة من مثل: الفوات، والذيل، والصلة، والتكملة، وغيرها.

ومع الاعتراف بعدم صرامة الحدود الفئوية بين عناصر العلاقات الأساسية لكثير من كتب تراجم الأعلام، ومع الإقرار بما يقع بينها من تداخلات في بعض الأحيان فإن استقرار الشبكة المعرفية لمداخل عملية التصنيف في تراجم الأعلام، يمنحنا قدراً كبيراً من الاطمئنان إلى الاعتقاد في عناية العقل العربي الفائقة خلال هذه الفترة بتفكيك العناصر الفاعلة في السرد التاريخي لأعلامه، واتخاذها منطلقات لوفرة من المؤلفات التي ميزت العصر كله بالتركيز الشديد على السرديات التاريخية وتنوعاتها الفئوية والطبقية.

ولا شك في وقوف عوامل تاريخية واجتماعية عديدة وراء كثافة الاتجاه إلى إنتاج هذه المؤلفات منذ نهاية القرن السابع الهجري؛ إذ كان لسقوط الخلافة العباسية أثر بالغ في العقل العربي الذي أصبح مضطراً لقبول التحول من التشريع الرأسي الضابط لعلاقات التبادل السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والذي كان بإمكانه إنشاء نوع من التتميط يتغلب على تباين أمزجة الشعوب الواقعة تحت مظلة الخلافة إلى نوع من التشريع المستقل بكل إمارة أو دولة؛ وهو ما أسهم في جعل الشبكة الاجتماعية أكثر تعقيداً وأجج المطامع السياسية في الاستئثار باستقلالية الحكم الإقليمي، على نحو أسهم في تضخم الذات المحلية إن جاز التعبير؛ وهو ما تجلّى في ظهور فئات تراجم الأعلام الخاصة بالأقاليم، أو ببعض الأطر المكانية



مُعْجَمُ الْبَابِطِينِ

لشعراء العربية في عصر الدول والإمارات

الجزئية داخل الأقاليم ذاتها، خاصة وأن مفهوم الخلافة لم يكن يشكل منذ أواخر العصر العباسي نفسه رؤية واضحة في أكثر البلدان التي كانت تخضع للحكم القبلي العشائري.

وقد كان للصراعات المذهبية، خاصة بين السنة والشيعة، دور رئيس في تضخم المدونة التاريخية وتوجهها إلى ذلك اللون من التفكير في صناعة معاجم الأعلام، بعد أن أخذ كل فريق في التوسع في استعراض أعلامه ومصنفاتهم وسردياتهم التاريخية، وهو ما يمكن تفسيره على أنه نزوع نحو إشعار المتلقي العادي بغلبة بروز الشخصيات المأثرة في فئة ما على الفئات الأخرى المنافسة لها.

كما كان لتكرار إخفاقات العالم الإسلامي في صد الهجمات الخارجية، وكثرة الثورات الداخلية التي مزقت نسيج المجتمع الداخلي دور بارز في اتساع مادة المدونة التاريخية؛ نتيجة ظهور شخصيات فاعلة خلال هذه الأحداث تستحق الترجمة لها، ورغبة العقل الجمعي في تقديم نقاط مضيئة عبر السرد التاريخي لهذه الشخصيات وغيرها من الأعلام، يكون من شأنها منح المتلقي تعويضاً نفسياً عن إخفاقات اللحظات الراهنة، وقدرةً على إيجاد الحلول لتجاوز تلك الانتكاسات في المستقبل.

وقد أدى ذلك كله بطبيعة الحال إلى تضخم المدونة التاريخية؛ خاصة في ظل التطور الكبير الذي عرفته الذاكرة البشرية في هذه المرحلة، بعد ترسخ ثقافة النص المكتوب وسيطرتها على الأنساق الذهنية للإنسان العربي، وما نتج عن ذلك من اتساع المخزون السردي للأحداث المسجلة، وارتفاع القدرة على استعادتها.

ولم يكن هذا التضخم الذي تميزت به المدونة التاريخية في عصر الدول والإمارات، رصيماً إيجابياً في جميع الأحوال؛ فقد أسهمت عوامل أخرى في دفعه ليصبح إشكالاً معرفياً وتحدياً صعباً يواجه المشتغلين على المادة السردية التي تقدمها هذه المدونة، خاصة حينما تتعرض بعض موادها الذائعة في السياق الزماني أو المكاني للمؤلف إلى نوع من الاختزال أو الإهمال؛ نتيجة تقديره الشخصي لشيوعها ومعرفة القارئ المعاصر أو المساكن بعناصرها ووعيه بخلفياتها، بما يجعل تقديمه لها ملبساً أو مربكاً على أقل تقدير في نظر القراء اللاحقين.

أو حينما تتعرض المادة السردية لتدخلات الرواة أو النساخ غير ذوي الخبرة في موضوع هذه المادة، على نحو يدفع بعضهم أحياناً إلى أعمال افتراضاتهم المسبقة لتوجيه النص من خلال ما يقدمونه من إضافات تملأ فجواته، غير أنها تؤدي في الوقت نفسه إلى تزييفه، أو ما يسهمون به من تعليقات وحواش معرفية تؤدي حتماً في حال قصورها أو اختلالها إلى التشويش على ذهن القارئ.

أو حينما تعاني المادة السردية ذاتها من مشكلات الدقة في انتشار الخبر واضطراب إجراءات توثيقه، أو غياب الحيادية في رسم الأطر التاريخية للأحداث، بسبب تقديمها غالباً من وجهة نظر السارد، الذي يخضع بالضرورة لمعطيات نسقه الذهني وتكوينه المعرفي وأهوائه الاجتماعية.

وعلى الرغم من كثافة التراكم المعرفي الواضح في إنتاج تلك الفترة ومصادر تراثها؛ فإنه لم يكن في أغلب الأحيان عملاً بنائياً منضبط العناصر؛ إذ ارتبطت نجاعته واتساقه بمدى الإلتزام المنهجي للمصنف من جهة، وطبيعة المتلقي الذي يستقبل المادة السردية ونوعية ثقافته من جهة أخرى، بحيث تعرّض ذلك التراكم المعرفي في أحيان كثيرة لغير قليل من القلق والاضطراب.

وقد نجد بعض الأمثلة والدلائل على ذلك في إغفال المصادر أحياناً ذكر عصر الأعلام المترجم لهم أو ذكر شيء من القرائن التاريخية الدالة على فترتهم الزمنية. وفي تناقض تلك المصادر أحياناً أخرى في تحديد تواريخ مواليد كثير من الأعلام أو تواريخ وفياتهم. وفي إهمالها أحياناً ثالثة أن تشير أثناء عرضها سياقاً سردياً ما إلى الحيز الزمني للحدث، خاصة إن لم يكن السرد التاريخي هو موضوعها الرئيس.

وربما كان من أنصع الدلائل على ما أصاب التراكم المعرفي في مصادر تلك الفترة من اضطراب مؤثر على الصناعة المعجمية ذاتها تلك التشوهات التي تعرضت لها المادة السردية على مستوى تحديد أسماء الأعلام وأنسابهم، وهو ما نجد له أمثلة وفيرة في تراث عصر الدول والإمارات.

منها على سبيل المثال، اختزال المصنف سلسلة نسب علم ما، على نحو يؤدي إلى تطابقها بعد حدوث عملية الاختزال مع سلسلة نسب علم آخر؛ غالباً ما يكون من أولاد عمومته، وهو ما يؤدي بدوره إلى تداخل السياق السردى بين العلمين واضطراب صياغة أخبارهما، خاصة إن كانا يشتركان في بلدة واحدة وعصر واحد. ومنها اعتماد المصنف على معرفة القارئ بسلسلة نسب العلم، أو بكنيته، أو بلقب مميز له يشتهر به، مما يدفعه إلى الاقتصار على أحدها دون غيره، ومن ثم يدخل هذا العلم دائرة الالتباس بالنسبة للقراء اللاحقين، مشتبكاً مع غيره من الأعلام الآخرين الذين يحملون لقبه أو كنيته أو اسمه المميز، ويشتركون معه في بعض عناصر ترجمته.

ومنها تعدد ألقاب العلم الواحد أو تعدد كناه، وتضارب المصادر في استعمال بعضها دون بعض، بما يتوهم معه القارئ أنه أمام شخصيات مختلفة لا شخص واحد، على نحو ما نجد في كثير من حالات السرد التاريخي غير المختص بترجمة الأعلام.

ومنها ما شاع في ذلك العصر من توارث الأسماء أو الألقاب أو الكنى أو النسبة إلى المذاهب والبلدان والصناعات والوظائف وغيرها، وهو ما يتم غالباً بين أبناء الأسرة الواحدة، حيث تجمع بين المورث والوارث فترة زمنية واحدة، أو فترات زمنية متقاربة؛ مما يؤذن بارتفاع احتمالات الخلط والتداخل بين تراجم هؤلاء الأعلام.

ومنها ما عرف عن أعلام ذلك العصر من كثرة رحلاتهم لأسباب علمية أو دينية أو سياسية، وذيوع عزو الواحد منهم إلى غير بلد من تلك البلدان التي ارتحل إليها أو أقام بها، على نحو يسهم في وقوع القارئ



مُعْجَمُ الْبَابِطِينِ

لشعراء العربية في عصر الدول والإمارات

في الشك والاضطراب عند قراءة المصادر المختلفة، خاصة حينما يعتمد المصنفون إلى اختصار سلسلة نسب هذا العلم والاكتفاء في الإشارة إليه بكنيته البلدية، مع شيء من اسم أو نسب أو كنية.

ولم تكن نصوص شعراء عصر الدول والإمارات بمعزل عمّا أصاب المادة السردية لأخبار هؤلاء الشعراء من خلط واضطراب في مصادر تلك الفترة، خاصة في كثير من المصنفات التاريخية التي افتقر مؤلفوها ونساخها ومحققوها، في أغلب الأحيان، إلى التمكن من أسرار اللغة وأصول الفن الشعري، فاضطربت وفرة من الأشعار المروية في تلك المصنفات بسبب ما اعتورها من اختلالات لغوية وإيقاعية فاحشة، أفسدت زهوة الشعر وطمست بهاءه، على نحو يدعو إلى ضرورة التفكير في مراجعة ضبط هذه النصوص وإعادة نشرها.

ولم تكن نصوص شعراء عصر الدول والإمارات بمأمن كذلك مما نال الشعر العربي عبر العصور من مشكلات توثيق النصوص وعزوها في الرواية الشفاهية والرواية الكتابية على حدّ السواء؛ فعادة ما تعددت نسبة النص الشعري الواحد في مصادر ذلك العصر لأسباب مختلفة إلى غير واحد من الشعراء.

وكثيراً ما تفلت زمام عملية التصنيف ذاتها من يد المؤلف، واختلت توازناته النسقية في البناء، فيجرح في مقطع من مقاطع الكتاب إلى حشد سلسلة طويلة من الاستطرادات الشعرية المتتابعة على سبيل الاستشهاد دون قطع واضح في أغلب الأحيان، على نحو يسقط القارئ في شرك الخلط والتداخل، خاصة حينما يسكت المؤلف عن نسبة هذه النصوص الشعرية الاستشهادية إلى أصحابها.

وربما اضطربت الصياغات والمحددات في سياق تقديم النص الشعري بصورة ملبسة بين المحيل والمشير أو بين الضمير وعوده، مما يضطر القارئ إلى التردد في توجيه نسبة الشعر إلى غير واحد من الشعراء المذكورين في السياق الحكائي الممهّد للنص.

والأخطر من ذلك كله أن بعض الظواهر الفنية التي شهدتها ممارسات إنتاج النص الشعري خلال عصر الدول والإمارات قد أسهمت في تطور لافت في زيادة مساحة خلط نسبة النصوص الشعرية واضطراب عزوها.

فلم تعد عملية الكتابة الشعرية صادرة في آليات إنتاجها واتجاهات تواصلها على فكرة الخطاب الفردي الموجه من الشاعر إلى جمهور المتلقين، أو إلى المتلقي الرئيس سواء أكان واقعياً أم متخيلاً، بل برزت وجوه أخرى للممارسة الشعرية اقتضتها طبيعة الحياة الثقافية في ذلك العصر؛ يصدر بعضها عن فكرة الخطاب التفاعلي، حيث يتوجه الشاعر إلى متلق بعينه مستحثاً إياه على مجاوبته بنص شعري مقابل في السياق نفسه على نحو ما نجد في شعر المراسلات، وشعر المطارحات، وشعر الألفاظ والأحاجي. كما يصدر بعضها عن فكرة الخطاب الجماعي، مثلما نجد في نصوص المشطرات، والخمسات، وبعض القصائد

والمنظومات المشتركة، والدواوين الجماعية، وغيرها من ألوان النصوص التي شارك في إنتاجها غير واحد من الشعراء غالباً ما جمعت بينهم رابطة واحدة؛ أسرية أو مذهبية أو مدرسية.

ومهما يكن من أمر، فإن صفوة ما ننهي إليه من ذلك كله يمكننا إجماله في أن قراءة معجم البابطين لشعراء العربية في عصر الدول والإمارات (٦٥٦ - ١٢١٥ هـ / ١٢٥٨ - ١٨٠٠ م) لا تكشف عن حياة الشعر في تلك الحقبة الطويلة من تراثنا الحضاري، ولا تصحح كثيراً من الأوهام الشائعة عن حقيقته وقيمه الفنية وإبداعات شعرائه المتميزة فحسب، وإنما تكشف في وضوح ونصاعة عن حياة الإنسان في هذا العصر وعن تجلياتها المختلفة في الدين والسياسة، وفي الاقتصاد والاجتماع، وفي العلم والفن، وتتفي كثيراً من التهم الباطلة التي وجهت إلى هذه الفترة ووسمتها بالضحالة والركود والجمود في تعميم مُخِلٍّ تأباه الأمانة والموضوعية، وتجده النصوص الكثيفة الكاشفة التي يزخر بها معجم البابطين للشعراء العرب في عصر الدول والإمارات من سرديات التاريخ وشعريات الأدب؛ حتى ليمكننا القول بأن هذا العمل التاريخي العملاق الذي يشتمل على تراجم خمسمئة وتسعة آلاف شاعر ممن عاشوا ما بين القرن السابع والقرن الثالث عشر من الهجرة وعلى فيض من نصوصهم الشعرية ومصادر دراستهم في القديم والحديث يمثل في حقيقته ديواناً جامعاً للحياة في عصر الدول والإمارات في سائر جوانبها وفي جميع وجوهها وتنوعاتها المختلفة التي حفظتها لنا مدونته التراثية الشاسعة بكل ما فيها من مصنوعات العقل العربي ونتاجاته الفكرية والأدبية في سائر بقاع العالم الإسلامي طيلة نحو ستة قرون من الزمان، استلزم استقرارها وتحليلها واستخلاص مواد المعجم وعناصره من بين ذخائرها المترامية الأطراف، جهداً خارقاً اضطلع بعبئه في صبر وجهاد وترقب مئات من نخبة الأساتذة والباحثين والفنيين والإداريين الذين انخرطوا طيلة عشر سنوات كاملة في العمل على إنجاز ذلك المعجم الخالد، يقودهم ربان هذا العمل وصاحب فكرته الشاعر عبدالعزيز سعود البابطين الذي لم يقف دوره يوماً عند حدود رعاية المعجم، وتمويل نفقاته المادية الهائلة، وتوفير كافة ما يتطلبه العمل فيه؛ وإنما هو بحق وأمانة في صدارة صناع هذا المعجم، بكل ما بذل من جهد وفكر، وبكل ما قدم من رأي ونقاش ومتابعة وتدقيق بعزم لا يلين وإصرار لا يعرف الملل ولا الكلال حتى أذن الله تعالى بتمام نعمته...

فله الحمد في الأولى.. ولله الحمد في الآخرة.. سبحانه.. نعم المولى ونعم النصير..

المستشار الأول للمعجم

أ.د. محمد مصطفى أبو شوارب

(جامعة الإسكندرية)

يونيو ٢٠١٩م



مُعْجَمُ الْبَابِطِينَ

لشعراء العربية في عصر الدول والإمارات

التقديم المعرفي لمعجم البابطين لشعراء العربية في عصر الدول والإمارات

(٦٥٦-١٢١٥هـ / ١٢٥٨-١٨٠٠م)

إن الحدّ الزمني للبداية (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) هو تاريخ غزو المغول للعراق واحتلال بغداد وانهايار الخلافة العباسية وبداية انحسار الحضور العربي المجسّم في اللّغة والشّعْر أساساً، وتراجع الإشعاع الحضاري السابق الذي استغرق قرونًا واكتسح مساحات وأحياءً جغرافيّة شاسعة من العالم.

يشير التاريخ الرمزي للبداية حينئذ إلى فاجعة كبرى ألّمت بالعالم العربي وقتها، وهي انهيار الخلافة العباسيّة رسمياً ونهائياً وتدمير عاصمتها بغداد، وبدء عصور التراجع واستفحال تمزّق ما بقي ممّا يمكن أن نسميه «الدولة العربيّة الكبرى» وتقسيم ما لا ينقسم المفضي إلى تعدّد الدويلات.

والعنوان الفرعي للمعجم (عصر الدول والإمارات) يشكّل توصيفاً للوضع السياسي خلال تلك العصور؛ حيث استفحلت الفرقة وتكرّس انحلال الإمبراطوريّة إلى أجزاء: ممالك وإمارات وكيانات سياسيّة مفكّكة ...

ولئن كنّا لا نؤيّد فكرة اعتبار العصور الممتدّة من أواسط القرن الثالث عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر عصور «انحطاط»، فضلاً عن أن نقبل أن تُسمّى «عصور الأدب المظلمة»^(١) فإننا نؤكّد أنّها عصور اتّسع خلالها الإسلام وامتدّ عبرها تأثيره - بقيادة شعوب أخرى هي المغول والفرس والأتراك- ولكن تقلّص خلالها استخدام اللّغة العربيّة وضاق الخناق على الشعر بشكل ملحوظ وانكفأ الإبداع الأدبي وانطفأت جذوة البحث فيه عن الجديد الطريف، ما عدا ما كان من ذلك في مصر والشام (حيث برز ابن نباتة والحليّ والبوصيري وابن الورديّ بالخصوص) وفي بلاد الغرب الإسلامي، ولا سيما الأندلس حيث وجدت العروبة ملاذها الأخير وأمكن لبعض شعرائها الموهوبين أن يأتوا بالجديد^(٢).

(1) Charles Pellat : « Langue et littérature arabes », A. Colin, Paris, 1970, p. 172.

(٢) المرجع السابق، ص ١٧٣ وما بعدها .

أمّا الحدّ الزمني لنهاية الحيّز التاريخي الواسع المؤطّر للمعجم (١٢١٥هـ / ١٨٠٠م) فهو مؤشر يقظة العرب في العصور الحديثة، وبداية ظهور البوادر الأولى لعصر النهضة العربيّة نتيجة ضعف الهيمنة التركيّة وباديات التعليم في البلاد العربيّة وإرسال طلائع البعثات الطلّابيّة إلى الخارج وظهور بواكير أعمال الترجمة والاستيحاء من أوروبا وانطلاق حركة التآثر بالغرب على إثر اكتشاف تقدّمه الحضاري الباهر والرّهيب معاً: فلقد كان لتأثير بعثة بونابارت (Bonaparte) أثر في المنطقة العربيّة كان منطلقه مصر، ومن مصر والشام انطلقت حركة بل حركات تشدّد تجديد الأدب العربي وتطلب للشعر «بعثاً» من شأنه أن يعيده إلى مسرح الحياة من جديد. وبين بداية هذا الإطار الزمني ونهايته بون شاسع يتجاوز الخمسة قرون امتدّ عليه نشاط العاملين في هذا المعجم الضخم.

أمّا الإطار المكاني أو الجغرافي للمعجم (نعني معجمنا هذا: معجم البابطين لشعراء العربية في عصر الدول والإمارات) فهو ملائم في مستوى التصرّو والمنطق لما سار عليه العمل في المعجم السابق الذي أنجزته مؤسّسة عبدالعزيز سعود البابطين الثقافية والذي سُمّي (معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين) وذلك لأنّه إنّما يهتمّ بجغرافيا الشعر لا بجغرافيا السياسة؛ إذ هو يتتبع اللّغة العربيّة وما يتحقّق فيها وبها في العالم من إبداع شعري بصرف النظر عن المكان الذي يتّم فيه ذلك.

يبدو لنا أنّه من الضروري تخصيص مبحث - ضمن هذا التقديم - للحدّث عن محتويات المعجم حديثاً نوعياً يتعلّق بالكيف؛ لأنّ الجانب الكميّ المتعلّق بالحجم ظاهر للعيان. وسيكون حديثنا هذا منطلقاً من عينات شعريّة وقع عليها اختيارنا لتكون نماذج ممثّلة للمدوّنة بكاملها.

إنّ المعجم يشكل مدوّنة شعريّة جامعة ممثّلة لأبرز الأنواع الشعريّة العريقة المكرّسة ضمن تجربة الشعر العربي التاريخيّة: ذلك أنّ جنس الكلام الأدبي الذي نسمّيه «الشعر» إنّما تحقّق - في الثقافة العربيّة - عبر أنواع أبرزها في تاريخ الشعر العربي القديم - الشامل للعصر الذي يعيننا - خمسة أنواع، هي: الرّجز، والقصيد، والمقطّعة، والمسمّط، والموشّح، وقد تحقّقت في المعجم عموماً، ومن ذلك:

أ - الرّجز: وهو - على ما اشتهر من أمر ابتداء الشعر - أقدم أنواعه، ولعلّه يمثّل شكل التعقيد الفنّي الأوّل الذي تلا السجع وتوسّط ما بينه وبين القصيد، أو أنّه النّوع الذي كان الشعر قد حلّ فيه قبل أن يُقصد (فتتظم منه المقطّعات والقصائد)، وقوامه في الأصل أشطر مصوغة على تفعيلة موحّدة هي (مستفعلن) تتكرّر - على نحو واحد رتيب - مرّة أو مرّتين أو ثلاثاً في كلّ شطر، ويعمد فيه الشعراء - في ضرب من ضروب الحرّيّة والسهولة - إمّا إلى تنويع القافية في كلّ بيت (مؤلّف من شطرين) أو في كلّ مقطع (مكوّن من عدد متساو من الأشطر المؤلّفة للأبيات) أو إلى التزام قافية في الأرجوزة كلّها: ممّا يبدو أنّه تطوّر حدث



مُعْجَمُ الْبَابِطِينَ

لشعراء العربية في عصر الدول والإمارات

في الرجز وقرب ما بينه وبين القصيد، أو تمثيل للمرحلة التي ثبت فيها الرجز واستمر بشكل مواكب لنشأة القصيد ومعايش له: ذلك أنّ الرجز ليس حالة تاريخية عتيقة من حالات الشعر ونوعاً منه بآداء، إنّما هو نوع / بحر ونوع / شكل تجلّى في صيغ استعمال قديمة أصلية ولأداء وظائف ومهمّات شعرية قديمة أصلية، أيضاً وأعمال حيوية (هي استتباط الماء والمتح على الآبار، والحداء «الغناء للإبل» أثناء الرحلات الليلية، والنزال في الحرب، وهددة الأطفال أساساً...) ولكنه استمر في الطرديات، ثمّ شاع في أغراض هي من اختصاص القصيد في ما جرت به سنن القول وتقاليد، ومنها: الفخر والمدح والزهد والمنظومات الفقهية والحكمية والعلمية وغير ذلك.

فالرّجز هو حينئذ نوع شعري خفيف قابل للارتجال، بل إنّ مقامات الارتجال هي مجاله الأصلي. وقد يكون بدأ نوعاً شعرياً ثمّ استمرّ نوعاً وبحراً (بأن أعار الأوزان تفعيلته الأصلية). والغالب عليه أن تُسمّى مصاريعه «أقسمة» (جمع قسيم) أو «أشطرًا» (جمع شطر) وتلتزم القافية في كلّ شطر منه فيسمّى «مشطورًا».

ومن الأمثلة على استخدام الرجز ضمن مدونة المعجم قول يحيى المحاسني مادحاً أحمد المقرئ:

لَهُ يَوْمٌ ضَمَّنَا مَعَ سَادَةِ
حَازُوا الْكَمَالَ [و] فَضْلُهُمْ لَا يُجَدُّ
فِي رَوْضَةٍ غَنَاءٍ فِي أَفْنَانِهَا
حَمَائِمُ الْأُنْسِ غَدَتُ تُغَرِّدُ
كَأَنَّهَا تَتَلَوُّ مَدَائِحَ الْبَنِّ
قَدْ زَارَهَا وَهِيَ الْإِمَامُ الْأَوْحَدُ
(٢٩٣/٢٤)

ومنه أيضاً قول الشاعر نصرالله التتوخي مادحاً موسى بن يغمور:

اسْمَعْ حَدِيثًا مِنْ مُجِبِّ لَمْ يَزَلْ
يَنْشُرُ مَا أَوْلَيْتَهُ مِنَ الْمِنِّ
حُبُّكَ يَا مُوسَى عَلَى كُلِّ الْوَرَى
فَرُضْ، وَأَمَّا غَيْرُهُ مِنَ السُّنَنِ
ظَاهِرٌ حُبِّي لَكُمْ أَضْعَافُهُ
يَا مَالِكِي بَيْنَ الضُّلُوعِ قَدْ كَمَنْ
(٥٢٢/٢٣)

ب - القصيد: هو نوع من أنواع الشعر أيضًا، وهو نوع منه ممتاز يمثل أرقى أنماطه الإبداعية في الثقافة العربية، وقد استساغ الذوق وكرّسته الألسنة أكثر من غيره من الأنواع حتى كاد يستغرق الشعر على الإطلاق. وهو يمثل مرحلة متطورة عن مرحلة أقدم في الزمن ساد خلالها - على ما يبدو - نوع الرجز. و«القصيدة» واحدة القصيد والوحدة الدنيا المجسّمة للنوع، وهي التسمية العربية للنص الشعري المطول المهيب (إذ إنّ وحدتها الدنيا سبعة أو عشرة أبيات ومعدّلها النظريّ (٣٠) أو (٤٠) بيتاً إذا أخذنا في الاعتبار شهادتي الأخطل والمنتبي).

وقد يكون الأصل في تسميتها إمّا «التقصيد» (وهو قسمة الشيء نصفين متساويين) أو «القصد» (بمعنى النيّة والعزم الشعري الخاضع لخطّة خطاب واعية محكمة). وإنّما تُقصد القصائد للمقامات والغايات والمناسبات المهمّة وتطول لمثل ذلك، قال الخليل - على ما روى ابن رشيق - «والطوال للمواقف المشهورات...»^(٣) فهي، على كلّ حال، النصّ الشعري المطول الموحد القافية والرويّ، الموزّع توزيعاً ثنائياً عمودياً الذي يهتم له صاحبه ويعنى به عناية وينشؤه إنشاءً متأنياً في غير مقامات الارتجال عادة (وهذه للرجز أنسب) فيخضعه لخطّة خطاب متدرّجة مركّبة نسبياً في الغالب.

ومثلما هو متوقّع فإنّ القصيد أكثر أنواع الشعر حضوراً في (معجم البابطين لشعراء العربية في عصر الدول والإمارات) وأكثرها جرياناً في الأغراض وتجسيماً لها، ولا سيما ما اقتضاه منها توظيف الشعر في الحياة أكثر من غيره خلال هذا العصر الطويل الممتدّ، ونعني المديح والرتاء خاصّة.

وممّا يمكن أن نمثّل بواسطته من شعر المعجم على استخدام نوع القصيد - وهو طاع كثيراً جداً كما أسلفنا - قصيدة عبدالرحمن ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ/١٤٠٦ م) التي مدح بها السلطان أبا العباس أحمد الحفصي ومنها قوله:

هل غير بابك للغريب مؤمّل؟

أو عن جنابك للأمانى مغلّ؟

متبواً الدنيا ومنتجج المنى

والغيث حيث العارض المتهلّل

حيث القصور الزاهرات منيفة

تعنوبها زهر النجوم وتحفل

ومنها كذلك وبالخصوص قوله:

سام على هام الزمان كأنه

للفخر تاج بالبدور مكلّل

(٣٠٧/٢ - ٣٠٨)

(٣) العمدة في محاسن الشعر ونقده وأدابه، تحقيق محيي الدين عبدالحميد، مطبعة حجازي، القاهرة، ١٩٣٤، ١/١٦٢.



مُعْجَمُ الْبَابِطِينِ

لشعراء العربية في عصر الدول والإمارات

ج - المقطعة: أثبت بحث سليم العمري «شعريّة الحصري» - وهو من أهمّ ما أُلّف في مسألة الأنواع الشعريّة - أنّ المقطعات نوع شعري عريق له في المنجز الشعري العربي شأن كبير، وإن كان حظّه من عناية الدارسين قليلاً.

ولعلّ ما ينبغي أن نؤكدّه في تدقيق خصائص القطعة إذا ما قيست بالقصيدة، هو أنّ الفارق بينهما ليس كمياً فحسب، بل ونوعياً أيضاً، (وكذلك الفارق بين المقصّد والمقطّع). وممّا ينبغي تأكيده كذلك هو أنّه لا توجد علاقة آليّة بين التقطيع والمشافهة وبين التقصيد والكتابة، وإنّما للتقطيع فنّيّات وآليات تختلف من الناحية الإنشائيّة عن فنّيّات نظم القصائد وآلياته: ذلك أنّ قوام القطعة الشعريّة التركيز في مستوى الدلالة والتكثيف في مستوى التنغيم ممّا يجعل القطع ليست قصائد قصاراً ولا بقايا قصائد، وإنّما ضرب من الشعر له مقوماته الخاصّة الساعية إلى التوتّر والإثارة عبر كثافة العبارة.

والمقطّعات معرض من معارض الشاعريّة ومجال من مجالات الإجابة له مقاماته ووظائفه التداوليّة المكثّفة له كمّاً ونوعاً، قال ابن رشيق: «قال بعض العلماء: يحتاج الشاعر إلى القطع حاجته إلى الطوال، بل هو عند المحاضرات والمنازعات والتمثّل والملحّ أحوج إليها منه إلى الطوال»^(٤).

ومن نماذج المقطّعات قول ابن الصّبّاغ العقيلي (ت ٧٥٨ هـ / ١٣٠٦ م) في الغزل.

زار الخيالَ ويا لها من لذّةٍ
لكنّ لذّات الخيال منامٌ
ما زلتُ ألتئمّ مبسماً منظومه
دُرٌّ ومورده الشهويّ مُدامٌ
وأضمُّ غصنَ البنانِ من أعطافه
وأشتمُّ مسكاً فُضّ عنه ختامٌ

وقول ابن كاتب المرج في نهر النيل (٢ / ٦٢٤) ما نصه:

يا نيلُ يا ملكَ الأنهارِ قد شربتُ
منك البرايا شراباً طيباً وغذاً
وقد دخلتَ القُرى تبغي منافعها
فعمّها بعد فَرَطِ النَّفْعِ منك أذى
فقال تذكرُ عني أنني ملكٌ
وتعتدي ناسياً «إنّ الملوك إذا...»

(٤٩/٢)

(٤) المرجع السابق، ١/١٦٢.

ومن الأمثلة على المقطوعة قول الشاعر عطلاله السكندري يخفف عن صديقه حسام وقد سجن:

إن قـصدوا منك بالذي فعلوا
تَنقِيصَ قَدْرِ مَنْ بَعْدَ مَا سُدَّتَا
مَسْكُنُكَ الْغِمْدُ يَا حَسَامُ فِلا
تَضِقْ ذِرْعًا فَهَكَذَا كُنْتَا
(٢٥٢/١٥)

ومثال آخر على المقطوعة للشاعر يحيى بن أحمد بن عبد المنان من شعراء القرن الثامن الهجري، فقد دخل مرة على السلطان أحمد المريني مساءً وقال له: أنعم الله صباحك، فأنكر السلطان ذلك وتوهمه ثملاً، فأشدد مرتجلاً:

صَبَّحْتُهُ عِنْدَ الْمَسَاءِ فَقَالَ لِي:
مَاذَا الصُّبْحُ؟ وَظَنَّ ذَاكَ مُزَاحًا
فَأَجَبْتُهُ: إِشْرَاقُ وَجْهِكَ غَرْنِي
حَتَّى تَوَهَّمْتَ الْمَسَاءَ صَبَاحًا
(١١١/٢٤)

د - المسمط: نوع آخر من الشعر له بنية مخصوصة وهوية تركيبية وتوزيعية مختلفة نسبياً عن هوية الرجز والمقطوعة والقصيد، وإن وجدت عناصر موحدة كثيرة بين هذه الأنواع. «والمسمط» يدل لغة على الجمع بين أسلاك اللؤلؤ بحجارة كريمة (كالياقوتة مثلاً) جمعاً يتكرر حتى يُصنع منه «سِمَطٌ» أي عقد، ويدل اصطلاحاً على أن يأتي الشاعر بأبيات (بمعنى أشطر أو أقسمة شعريّة) على قافية ما، ثم يأتي ببيت على خلاف تلك القافية، ثم يأتي بمثل عدد الأبيات الأولى على قافية ما، ثم يأتي ببيت على قافية البيت الأول (الذي سمط به من قبل) وهكذا دواليك إلى آخر النص الشعري. وقيل: المسمط من الشعر ما قفي أربع بيوته وسمط في قافية مخالفة. على أن الغالب على الأشطر أو الأقسمة التي تتألف منها مقاطع المسمط أن تكون أربعة خامسها البيت السمط فيسمى المسمط «مخمساً»، ولكن عددها قد يزيد على ذلك فيسمى المسمط «مسدساً» أو «مسبباً» أو «متمناً» (وهو قليل جداً).

ومن أمثلة المسمط الخمس، وهو أشهر أشكاله وأكثرها تواتراً في الشعر عامة وفي المعجم خاصة، ما صنعه ابن جابر الوادي أشي (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) في المديح النبوي، وهو قوله:

تَبَسَّمَ نَشْرُ الْمَسْكِ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ
وَأَشْرَقَ بَدْرٌ بِالضُّيَا الْمَتَوَقِّدِ



مُعْجَمُ الْبَابِطِينِ

لشعراء العربية في عصر الدول والإمارات

أقولُ وقلبي بالصباغة مرتدٍ
سلامٌ على أرضِ حَوْتِ جِسْمِ أَحْمَدِ
فأنعمَ بها أرضاً بها خيرٌ مرقدٍ
عليه صلاةُ الله ثمَّ سلامُهُ
به عن جميع الكونِ زالَ ظلامُهُ
وطيبةٌ حقاً زادَ فيها احترامه
وقد شَرَّفَتْ إذ حَلَّ فيها مقامُهُ
وتاهتْ على كُـلِّ القرى بمحمّدٍ
(٢٣٨/٢ - ٢٣٩)

وقول الشاعر علي سالم الكناني في تخميسه للبردة:

يا مَنْ غداً هائماً حيرانَ لم يَنَمِ
علامَ أجريتِ دمعَ العينِ كالعَنَمِ
وفيمَ أنحلتِ هذا الجسمَ بالسَّقَمِ
أمنَ تَذَكُّرِ جيرانِ بذي سَلمِ
مَزَجَتْ دمعاً جرى من مُقلبةٍ بدمِ
أَمْ مِنْ شَجُونِ لأصلِ القلبِ صارمةِ
أَمْ مِنْ تَوَقُّدِ نارٍ فيه ضارمةِ
أَمْ مِنْ كَرُوبِ غَدَتْ فيه ملازمةِ
أَمْ هَبَّتِ الرِيحُ مِنْ تَلْقَاءِ كَاطمةِ
وأومَضَ البَرْقُ في الظلماءِ مِنْ إِضْمِ
(١٧/٧-٨)

ه - الموشح: التوشيح - في ما ذكر سليم ريدان في كتابه «الغائب والشاهد في الموشحات الأندلسية»^(٥) - هو: «ترصيع الكلام وتنميق الأقسام». وصنَّع الشعر على أشطار الأشعار غير المستعملة، وهو «في إعرابه كالشعر (القصيد) لكنّه يخالفه بكثرة أوزانه، وتارة يوافق أوزان الشعر وتارة يخالفها...» ويدقق سليم ريدان في الموشح ما مفاده أنّ الصفدي أضاف - فيما هو يعرفه - إلى مسألة الوزن القافية، فاستدرك على ابن سناء الملك بعبارة «بقواف مختلفة».

(٥) الغائب والشاهد في الموشحات الأندلسية، مطبعة أوربيس، القصر السعيد، تونس، ٢٠٠٠.

وحقيقة الموشح أنه أكثر أنواع الشعر تعقيداً فنياً وأوضحها تداخلاً بين مواد الشعر ومواد الموسيقى وأكثرها تعدداً في الأشكال واختلافاً في الصيغ والمظاهر.

ومن أمثلة استخدام نوع الموشح شكل أول نجده عند ابن حجة الحموي (ت ٨٣٧هـ/٤٣٣م) ومنه قوله:

والبُعْدُ تقي	والله ما حنثت في أيما
لو كان يفي	من مت به صباية يا أسفي
بادي الهيف	قأسوه بغصن بانة منعطف
للمعتنق	قلت اتئدوا قد زدتم في السرف
بين الورق...	ما قيمة مقصوم غصون البان

(٢٥٨/٢)

ومن أمثلة الموشح شكل ثان نجده عند ابن خلف الجزائري (ت ٦٧٠هـ/١٢٧١م) ومنه قوله:

يد الإصباح	قدحت زناد الأنوار في مجامر الزهر
دهر جذلان	واعتدال ريعان
فما الإظعان	عن طلاً وغزلان
راق الزمان	وشدت على البان
ذات الجناح	وانثنت قدود الأشجار في الغلائل الخضري...

(٣٠٩/٢)

وشكل ثالث نجده عند ابن علي الجزائري (ت ١١٦٩هـ/١٧٥٥م) ومنه قوله:

قد عذب مهجتي رشاً تياه	والصبر محال
والقلب به متيم يهواه	حالا ومال
أهوى قمرًا	
علا وفراق القمر	
عقلي سحرًا	
فبت أرعى السحرا	
والحبيب طرا	
وما قضيت الوطرا	

(٥٥٠/٢)



مُعْجَمُ الْبَابِطِينِ

لشعراء العربية في عصر الدول والإمارات

وشكل رابع نجده عند ابن كاتب المرج القوسي (ت ٧٤٠هـ/١٣٣٩م) ومنه قوله:

عَمْرَانُ	من أهله في السَّبَسَبِ	لي مَرْبَعٌ قد خَلَ
هَتَانُ	فمدمعي كالسَّحْبِ	فإن يكنْ أَمْحَلَا
عاطرُ	وكـلِّ وادٍ	سَرَوْا فطابَ النَّسِيمُ
شاعرُ	بالعشوقِ فهو	ولي فـؤادٌ يهيمُ
نافرُ	لـو صيدَ منهم	حلّوا ظباءَ الصَّريمِ
	فـرامَ ما أحاذرُ	حذرتُ أن لا يريمُ
	ليلٍ فبدرٌ سافرُ...	فإن سرى في بهيمُ

(٦٢٦/٢)

وشكل آخر عند الشاعر أحمد المانجلاتي حيث قال في التشوُّق إلى البقاع المقدسة:

واقـرَ السَّلامِ	قِفْ لي بِتِلْكَ الدِّيَارِ	باللهِ حَادي القِطارِ
كيفَ يَلامِ	واذكُرْ صِبابَةَ وَجَدِي	سَلِّمْ على عُزْبِ نَجْدِ
مَعَ المَقامِ	شوقًا لتلك الرُّبوعِ	مَن بادرتَه الدُّمُوعِ

(٤٣٣/٥)

إنَّ مدوِّنة الشعر الجامعة المجسِّمة لمحتوى المعجم قد اتسعت لكلِّ الأغراض الشعريَّة التي أمَلتها الحاجة التعبيريَّة وكرَّسها الاستعمال منذ العصر العبَّاسي الأوَّل، أيَّ منذ القرن الثاني للهجرة (الثامن للميلاد). وشرح هذه الملاحظة: لعلَّ الغرض الشعري الوحيد قليل الحضور هو الفخر؛ والسبب في ذلك هو أنَّ ما يمكن أن نسميَّه العصر الذهبي لشعر الفخر قد انتهى وولَّى منذ تولَّى البداوة وتراجع مطالبها وتأثيراتها في الحياة وفي الشعر. ولما كان الفخر غرض البداوة الأوَّل فقد انكفأ بانكفائها خلال عصر الحدائث الشعريَّة الأولى الموافقة للعصر العبَّاسي الأوَّل، ثمَّ عادت إليه الحيويَّة بعودة الحيويَّة إليها خلال النصف الأوَّل من القرن الرابع للهجرة بالخصوص (بسبب الانتعاشة التي شهدتها في شعر المتنبِّي والتي جعلت منها مطلبًا فكريًّا وخطَّة خطاب هدفها محاولة إحياء العروبة وإعادة الاعتبار إلى العرب في شعر هذا الشاعر الفدِّ) ثمَّ تراجعت بتراجعها في ما تلا ذلك من الزَّمان؛ ذلك أنَّ بين الفخر والبداوة وبينه وبين العروبة علاقة وطيدة في ما نقدَّر.

وسائر الأغراض الشعريَّة موجودة ممثلة في المعجم حاضرة فيه، مع تفاوت في حجم هذا الحضور له ما يبيِّره. وأبرز هذه الأغراض: المديح، وهو نوعان كبيران في هذا العصر الطويل الذي اعتنى به المعجم؛

مديح كبراء الزمان من أهل السُّلطة والمُلك والجاه أو أهل النباهة في العلم والفضل من جهة، والمديح النبويّ من جهة ثانية. والفرق بين هذين النوعين من المديح في شعر هذا العصر، هو أنّ مديح كبراء الزّمان يعتبر في خريف المديح لأنّ عصور هذا الفنّ الشعري الكبرى قد ولّت كما أنّ المقتدرين عليه من الشّعراء الأفاضل قد قلّوا ومستحقّيه (من الرجال الاستثنائيّين) قد نقصوا.

وكان من أبرز الممدوحين الملك الأشرف صلاح الدّين، خليل ابن سيف الدين قلاوون الألفي الذي أنهى الوجود الصليبي.

ومما قيل فيه، على إثر فتحه (عكا) قصيدة ابن الصّائغ الدمشقي التي منها:

يا أشرف الدّنيا تهَنُّ فإِنَّهُ
فَتَحَّ سِوَاكَ بِمِثْلِهِ لَمْ يَحْلَمْ
أشْبَهَتْ مُعْتَصِمَ الْخِلاَفَةِ هَمَّةً
فَالرُّومُ مِنْكَ دِيَارُهُمْ لَمْ تُعْصَمِ
فَأَرَيْتَ عَكَامًا بِعَمُورِيَّةِ
رَأَتْ الْفَوَارِسُ فِي الرِّمَانِ الْأَقْدَمِ
وَأَعْدَتْهَا لِلْمَسْلَمِينَ وَلَمْ يَكُنْ
مِنْهُمْ يُرَى الْقَطْمِيرُ إِلَّا بِالْدَمِ
(٤٠/٢)

وعلى عكس المديح «العادي» فإنّ المديح النبويّ يعتبر «في عصره» - إن صحّ القول - لأنّه فرع من المديح جديد متأخّر نسبياً يشكّل - في تقديرنا - ضرباً من ضروب المهرب أو الملاذ الروحي الذي تعلّقت به أمانى الشعراء؛ إذ فرغ الزمان من الأبطال «الماديين»... هذا فضلاً عن كون المديح النبويّ يدخل، في اعتقادنا، في ما قد يمكن أن نسمّيه - من زاوية نظرنا - «تدبير الشعر للموت» إذا اعتبرنا أنّ مدح البشر العاديّين داخل في تدبير الشعر للحياة.

ومن نماذج المديح النبويّ - وهي كثيرة جدّاً في شعر هذا العصر على ما أسلفنا - قصيدة عبدالرحمن ابن خلدون البائيّة وما بعدها التي مطلعها:

أسرفن في هجري وفي تعذيبي
وأطلن موقف عبرتي ونجيبني



مُعْجَمُ الْبَابِطِينَ

لشعراء العربية في عصر الدول والإمارات

وَأَبَيْنَ يَوْمَ الْبَيْنِ مَوْقِفَ سَاعَةٍ
لِوَدَاعِ مَشْعُوفِ الْفَوَادِ كَثِيبِ

ومنها قوله بالخصوص:

يَا سَيِّدَ الرُّسُلِ الْكِرَامِ ضِرَاعَةً
تَقْضِي مَنَى نَفْسِي وَتُنْزِهُبُ حَوْبِي
هَبْ لِي شِفَاعَتَكَ الَّتِي أَرْجُو بِهَا
صَفْحًا جَمِيلاً عَنِ قَبِيحِ ذَنْبِي
إِنَّ النِّجَاةَ وَإِنْ أَتَيْتَ لَامِرِي
فَبِفَضْلِ جَاهِكَ لَيْسَ بِالتَّسْبِيبِ
(٣٠٦/٢)

ومن المدائح النبوية أيضًا قول الشاعر عبدالحميد خان:

يَا سَيِّدِي يَا رَسُولَ اللَّهِ خُذْ بِيَدِي
مَا لِي سِوَاكَ وَمَا أَلْوِي عَلَى أَحَدٍ
فَأَنْتَ نَوْرُ الْهُدَى فِي كُلِّ كَائِنَةٍ
وَأَنْتَ سِرُّ النَّدَى يَا خَيْرَ مَعْتَمِدٍ
وَأَنْتَ حَقًّا غِيَاثُ الْخَلْقِ أَجْمَعِهِمْ
وَأَنْتَ هَادِي الْوَرَى لِلَّهِ ذِي السُّدَدِ
(٣٢٩/١٢)

والذي تجدر ملاحظته، في ما يخص شعر المديح النبوي في هذا العصر، أنه قد استقر في الشعر استقرارًا واكتسب مكانة الغرض الفرعي المستقل.

وإنَّ الدليل الساطع على أنَّ شعر المديح النبوي اكتسب «شريعته» الغرضية هو أنَّ الشعراء قد أصبحوا يمهّدون له بما يمهّد به للمديح القديم المكرّس أي باللوازم والشروط البنيوية الدلالية المتمثلة في البدء بالتسبب والتخلّص بالرحلة. والشاهد البليغ على كلامنا هذا هو قول ابن خلدون من قصيدته التي أحلنا عليها أعلاه آخر الوقفة الطلّية:



ما هاجني طربٌ ولا اعتادَ الجوى
لولا تذكُرُ منزلٍ وحبيبٍ
أهفو إلى الأطلال كانتَ مطلعاً
للبدِ منهُم أو كناسَ ربيبٍ
تبلى معاهدُها وإنَّ عُهودَها
لُجدها نظمي وحُسنُ نسيبي...
(٣٠٦/٢)

وهو كلام يتحدّث فيه الشّعر عن نفسه (بذكر الاستهلال بالحديث عن الغرام ومتعلقاته ذكراً اصطلاحياً) وينهي به الشّاعر مرحلة النسيب ثم يتخلّص بعده مباشرة بالرحلة إلى المدح قائلاً عن المطايا:

هألا عطفتْ صُدورهنَّ إلى التي
فيها لبانةٌ أعينٍ وقلوبٍ
فتوّم من أكنافٍ يثرب مأمناً
يكفيك ما تخشاه من تثريبٍ
(٣٠٦/٢)

أمّا ما بدا لنا من الشعر الممثل لجودة القول في شعر المديح النبويّ، ولسعي هذا اللون من الشعر إلى تحقيق ما قد نسميه نزوع الشعر إلى إحداث ضرب من ضروب التجاوب بين المعجزة النبويّة والمعجزة الفنيّة أو انجذاب العبارة إلى الفكر، فهو قصيدة ابن الصّائغ المغربي (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) القافية المطوّلة التي يقول منها:

بُعْدُ المزارِ ولو عةُ الأشواقِ
حَكَمًا بفيضِ مدامعِ الأماقِ
وخفوقُ نجدِيّ النّسيمِ إذا سرى
أذكى لهيبَ فُؤادي الخفّاقِ
☆☆☆☆
ياساريّا والليلُ ساجٍ عاكفُ
يفري الفلا بنجائبٍ ونياقِ



مُعْجَمُ الْبَابِطِينِ

لشعراء العربية في عصر الدول والإمارات

عَرَّجَ عَلَى مَثْوَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ
خَيْرِ الْبَرِيَّةِ ذِي الْمَقَامِ الرَّاقِي

☆☆☆☆

أَعْلَى الْكِرَامِ نَدَى وَأَبْسَطُ هَمِّ يَدًا
قَبِضَتْ عِنَانُ الْمَجْدِ بِاسْتِحْقَاقِ
مَنْ صَيَّرَ الْأَيْدِيَّانَ دِينًا وَاحِدًا
مِنْ بَعْدِ إِشْرَاكِ مَضَى وَنِفَاقِ
(٤٣/٢ وما بعدها)

ويلى المديح في الأهمية شعر الرثاء، وقد تنوع بين رثاء فقد صادق ورثاء مجاملات وتكلف، قيل الكثير منه في شيوخ العلم وأصحاب التأليف، يرثي الأحياء الباقون منهم الأموات الذاهبين تكريماً لسنة وتقاليد - للجمع فيها مصلحة ونفع على ما نقدر - لا يكاد يخلو منها عصر.

ومن أمثلة الرثاء قصيدة لابن زمرك (كان حياً في ٧٩٨هـ / ١٣٩٥م) وهي فائتته التي جمع فيها بين رثاء الغني بالله النصري الأندلسي ومدح ابنه يوسف الثاني، أو بين تعزية وتهنئة. وقد نوهنا بها لصعوبة المأخذ بالرغم من أن الشاعر متبع في هذا المنحى لا مبتدع، على ما هو معروف من أمر الشعر منذ القرن الأول للهجرة (السابع للميلاد) عند عبيد الله بن همام ثم عند أبي الشيص وأبي نواس ومن بعده^(٦)، ومنها قوله:

لئن غرَبَ الْبَدْرُ الْمُنِيرُ مُحَمَّدُ
لقد طلعَ الْبَدْرُ الْمَكْمَلُ يَوْسُفُ
وإن رُدَّ سَيْفُ الْمَلِكِ صَوْنًا لْغَمْدِهِ
فقد سُئِلَ مَنْ غَمِدَ الْخِلَافَةَ مُرْهَفُ

☆☆☆☆

ولمَّا قَضَى الْمَوْلَى الْإِمَامَ مُحَمَّدَ
تَحَكَّمَ فِي النَّاسِ الْأَسَى وَالتَّأْسُفُ
ولكن تَلَاقَى اللَّهْ أَمْرَ عِبَادِهِ
بِوَارِثِهِ وَاللَّهُ بِالنَّاسِ أَرْأَفُ
(٣٧٧/٢ - ٣٧٨)

(٦) العمدة: ١٤٧/١.

ومن الأمثلة أيضاً نونيّة ابن علي الجزائريّ التي رثى بها زوجته وقد استوقفنا لكونها من نادر شعر الرثاء الذي قيل في الأقارب، بل وفي رثاء الزوجات، وهو من نادر النّادر، وهي لئن كانت منخرطة في تقليد سابق (أول ممثليه وروّاده جرير بن عطية في رثاء زوجته خالدة بالقصيدة الرائيّة الشهيرة) فإنّها شجيّة ممثلة للنوع تمثيلاً جيّداً، ومنها قوله:

...فما راعني إلا النّوى صاح صيحةً
فززع من عرشي وضعع من ركني
وقال لمن كانت حياتي وراحتي
وريحانتي: قومي إلى منزل الدفن
فحالت يد الأقدار بيني وبينها
فأصبحت مسلوب الجا ذاهل الذهن
فيا سلوتي أودعتك الله فاذهبي
ويا شقوتي أقصي الكرى عن جمى الجفن...
(٥٤٩/٢)

من أمثلة الرثاء قول الشاعر إبراهيم الطيّبي في رثاء موسى الموسوي:

أَتَعْجَبُ مِنْ نَمْعِي السَّخِيّ إِذَا جَرَى
لَأَنْتَ خَلِيٌّ مَا سَمِعْتَ بِمَا جَرَى
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَجْدَ جُبَّ سَنَامُهُ
وَأَنَّ فُؤَادَ الْمُكْرَمَاتِ تَفْطَرَا
وَأَنَّ رِيَاضَ الْفَضْلِ صُوحَ نَبْتُهَا
وَكَانَ لَعْمَرِي بِالْفَضَائِلِ مُزْهِرَا
وَأَنَّ بِحَارَ الْجُودِ خَضَخَضَهَا الرَّدَى
وَأَضْبَحَ صَافِيهَا لَدَيْنَا مُكَدَّرَا
(٣٢٣/١)

ويلي الرثاء في الأهميّة شعر الغزل، ولعلّ أغلبه لا جديد فيه إذا ما قورن بشعر الغزل الذي شهدته عصور الشّعري العربي الذهبيّة، ولا سيما العصر الأموي والعصر العبّاسي الأوّل، لكنّه على الرغم من ذلك يتضمّن معاني جزئيّة جديدة، ولمسات فنيّة نادرة كتلك التي نجدها عند صفّي الدين الحلّي مثلاً.



مُعْجَمُ الْبَابِطِينَ

لشعراء العربية في عصر الدول والإمارات

ومن شواهد شعر الغزل قول ابن خَلَّان (٦٨١هـ/٢٨٢م) من غزليّة مطوّلة:

قسماً بوجدي في الهوى وتحرقني
وتحسّري وتلهّفي وتلهّبي
لو قلت لي جُذلي بروحك لم أقف
فيما أمرت وإن شكت فجزّب

☆☆☆☆

قد خانني صبري وضاقحت حيلتي
وتقسمت فكري وعقلي قد سبي
فانظر إليّ برحمةٍ أحيا بها
وتريح قلبي من غرامٍ مُتعبٍ
(٣١٢/٢ - ٣١٤)

ومن شعر الغزل قول الشاعر إبراهيم بن قُرْناص:

يا جنة الطّرفِ نازِ القلبِ مأواك
وما توقّدها من برّدِ ذكراك
ويأ مَهَاةَ الدّمَى كُلَّ الدّمَاءِ لَكُم
جلّ فَمَنْ بِحَرَامِ الْفَتَاكِ أَفَتَاكِ
حاشاك يا ظبيّة الأنسِ التي افتَرَسَتْ
أُسْدَ الْعَرِينِ مِنَ التّائِيمِ حَاشَاكِ
يَتْنِي تَتْنِيكَ قُضِبَ الْبَانَ مَائِسَةً
وَيَبْسِمُ الدُّرَّ عَجْبًا مِنْ تَنَائِكَ
(١٠٢/١)

ويلي شعر الغزل شعر الحنين إلى الأوطان والتشوق إلى الأهل والخلان، ونود أن نمثّل عليه بقصيدة

لابن خلدون مطوّلة يذكر فيها أحبابه وذكرياته في تونس، ومنها قوله:

كفّي حزنًا أنّي على القرب نازح
وأنّي على دعوى شهودي غائب

مُعْجَمُ الْبَاطِنِ

لشعراء العربية في عصر الدول والإمارات



سَلَوْتُهُمْ إِلَّا اذْكَارَ مَعَاهِدِ
لَهَا فِي اللَّيَالِي الْغَابِرَاتِ غَرَائِبُ
وَإِنَّ نَسِيمَ الرِّيحِ مِنْهُمْ يَشوقُنِي
إِلَيْهِمْ وَتُصْبِئُنِي الْبُرُوقُ اللَّوَاعِبُ

☆☆☆☆

رَعَى اللَّهُ عَهْدًا ضَمَّهُ أَفُقُ تُونِسِ
وَمَعَهْدَ أَنْسِ لَمْ تَزْعُهُ النِّوَابُ
بِلَادُ بِهَا عَقَّ الشَّبَابُ تَمَائِمِي
وَلَامَسَ فِيهَا التَّرَبُّ مَنِّي التَّرَائِبُ
يَذْكَرُنِي عَهْدَ الرِّضَا فِي جَنَابِهَا
أَمَانٍ تَقَضَّتْ لِي بِهَا وَمَارِبُ...
(٣٠٥/٢ - ٣٠٦)

ومن جيد شعر اللّهُو والخمر قصيدة مطوّلة للشّاعر التلمساني - الأندلسي ابن خميس الرعيني (ت ٧٠٨هـ/١٣٠٨م) وقدّم لغرضه فيها بنسيب ومنها قوله:

أَرْقُ عَيْنِي بِبَارِقٍ مِنْ أَثَالِ
كَأَنَّهُ فِي جُنْحِ لَيْلِي ذُبَالِ
أَثَارِ شَوْقًا فِي ضَمِيرِ الْحَشَا
وَعَبْرَتِي فِي صَحْنِ خُدِّي أُسَالِ
قَوْلُوا وَشَاةَ الْحَبِّ مَا شَأْنُكُمْ
مَا لَذَّةُ الْحَبِّ سِوَى أَنْ يُقَالَ
قُمْ نَطْرِدِ الْهَمَّ بِمَشْمُولَةٍ
تُقَصِّرُ اللَّيْلَ إِذَا اللَّيْلُ طَالَ
كَالْمَسْكِ رِيحًا وَاللِّمَى مَطْعَمًا
وَالتُّبْرَ لَوْنًا وَالهُوَا فِي اعْتِدَالِ
لَا تُشْعَلِ الْمَصْبَاحَ لَا وَاسْقِنِي
عَلَى سَنَا الْبَرْقِ وَضَوْءِ الْهَلَالِ



مُعْجَمُ الْبَابِطِينِ

لشعراء العربية في عصر الدول والإمارات

فَالعَيْشُ نَوْمٌ وَالرَّدى يَقْظَةٌ

والمـرء ما بينهما كالخيال...

(٣٢٤ - ٣٢٣/٢)

ومن كوّنة التأمل هذه التي أفضى إليها شعر اللّهُو، نتطرق إلى دائرة دلالية استوقفتنا، وهي دائرة الموعظة والحكمة والزهد والتصوّف وما جرى مجرى التزام الجدّ والتقوى والتخفّف من الدّنيا والتفكير في الآخرة وإعداد العدة لها والاستعاضة عن عبوديّة الجسد بحريّة الرّوح... إلى غير ذلك من المطالب التي أجاد أبو الحسن ابن الصّبّاغ (ق ١٢هـ/ ١٨م) استحضارها في أرجوزته الرّائيّة التي منها قوله:

عَدَّ عَنِ الْعَالَمِ إِنْ رُمِتَ الْعُلَا

وَوَغِبَ عَنِ الْأَعْرَاضِ وَالْجَوَاهِرِ

فَمَهْرُهَا طَلَقٌ كُلٌّ وَاحِدٌ

وَالْجَدُّ فِي الظُّلْمَاءِ وَالْهَوَاجِرِ

سَيَمَا الْمَحِبِّ أَنْ يَكُونَ قَلْبُهُ

مُتَّعًا مِنْ لِمَمِ الْخَوَاطِرِ

جَسْمٌ خَرَابٌ وَفَوَادٌ عَامِرٌ

فَكَانَ بَيْنَ عَامِرٍ وَغَامِرٍ

سَرَائِرُ الْعَشَّاقِ لَا يَعْرِفُهَا

إِلَّا فَتَى مُطَهَّرُ السَّرَائِرِ

(٤٦/٢)

هذا، وقد احتوى المعجم أغراضاً ثانوية ودوائر دلالية أخرى تضيق عنها هذه الكلمة الموجزة. وقد كان مدار الشّعْر المقول فيها على تبادل الألفاظ ومسالك الهزل وتعبير الرّؤيا وغير ذلك من شواغل بعض شعراء العصر. أمّا بعد، فإنّ هذا المعجم له قيمة أولى كميّة وتوثيقية نوّد تأكيدها قبل قيمته النوعيّة؛ إذ أنّه قد دوّن تاريخاً ضخماً وديواناً عظيماً لشعراء العربيّة في حقبة طويلة الأمد، ممّا من شأنه أن يتيح للباحثين المهتمّين بدراسات العصور الأدبيّة ثروة شعريّة طائلة.

وله كذلك قيمة كبرى في إحياء تراث الفكر العربي المتجسّم في الشّعْر. وهو يمكّن من تكوين صورة عن هذه المرحلة الكبرى من تاريخ الأدب العربي، وهي فترة لا بدّ منها ليتّضح لنا المشهد الشّعري للعصر السّابق لها وتتوضّح لنا صورة العصر الذي جاء بعدها كلّ الوضوح.

ولعمري إنه لينطبق عليه ما سبق أن قاله شكري فيصل - محقق قسم شعراء الشام من «خريدة القصر وجريدة العصر» - عن الخريدة من أن لها قيمتين أدبية وتاريخية: فأما القيمة الأدبية فتتمثل في ما حفلت به هذه المدونة الضخمة من شعر، متفاوت في قيمته الفنية لا محالة، ولكنه متنوع المظاهر بالغ الدلالة على خصائص أدب العصور التي اهتم بها. وأما القيمة التاريخية فتتمثل في كونه سيُضحى مرجعاً أساسياً لتراجم شعراء الفترة، وهم كثيرون متنوعون - وإن جمع بينهم قرص الشعر - وفي تضمّنه معلومات غزيرة هامة عن دقائق التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي والديني والثقافي تضمّنها الشعر.

وبالرغم من أن قيمة الشعر «التوثيقية» تظل دائماً موضوع نقاش، فإن نصوص الشعر - بحكم رسوخ قدمه في الشفوية - قد تنطق - إذا استنطقت بما قد لا تنطق به الوثائق التاريخية المكرّسة لذلك (للتاريخ) ذلك أن الشعراء ضمائر الناس أو مستودع ضمائرهم... بل إن الشعراء في هذه العصور وفي هذه المناطق من أرض العربية - فقهاء كانوا أو قضاة، حكّاماً أو ثائرين - هم الذين شاركوا مشاركة قوية في صياغة هذا التاريخ^(٧).

أما الترجمة لقائلي الشعر فهي من مقتضيات توثيق الشعر ومن مقتضيات صناعة معاجم الشعراء، وليست قائمة برأسها موجودة لذاتها، ولهذا فإن أولى وظائفها أن تهيب الأسباب وتوطد الصلة بين الشاعر والشعر الذي تركه أو الذي تم اختياره لتمثيله.

ويكرّس المعجم واحدة من سنن التأليف البارزة في الثقافة العربية أهم خصائصها حسن السيطرة على المادة الشعرية بالرغم من ثرائها واتساع مداها الزماني والمكاني، ثم طموحها الاستقصائي ومنزعها الشمولي.

والله وليّ التوفيق،،،

أ.د. مبروك المناعي

أستاذ الشعر العربي وإنشائية الشعر

(الجامعة التونسية)

(٧) بهجت الأثري، مقدّمة قسم شعراء العراق من «خريدة القصر».



مُعْجَمُ الْبَابِطِينَ

لشعراء العربية في عصر الدول والإمارات

التقديم الفني لمعجم البابطين لشعراء العربية

في عصر الدول والإمارات

(٦٥٦ - ١٢١٥ هـ / ١٢٥٨ - ١٨٠٠ م)

أولاً: مراحل إنجاز المعجم:

١ - مرحلة الإعداد والتأطير:

إن إنجاز المؤسسة لأول معجم للشعراء العرب (وهو معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين) ثم إنجاز معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين) قد كان الحافز المباشر على إنجاز المعجم الذي بين أيدينا: فقد أعلن رئيس مجلس الأمناء في اليوم الموالي للحفل الذي انتظم بمناسبة الفراغ من المعجم السابق عن الرغبة في البدء في مشروع آخر أكبر وأوسع وأكثر شعراً وعدد شعراء، وتم ذلك في مؤتمر صحفي انعقد بتاريخ ٢٠٠٨/١٠/٣٠ وصرح فيه أمين عام المؤسسة بالعزم على إصدار معجم جديد يوثق الإبداع الشعري العربي في ما بين أواخر القرن الثالث عشر وأواخر القرن الثامن عشر الميلادي أي خلال القرون الخمسة السابقة لمنطلق المعجم السابق، وبذلك أعطى إشارة الانطلاق لفريق العمل المعجمي كي يبدأ في المعجم الجديد، ثم تمت المصادقة - في اجتماع مجلس الأمناء المنعقد بالكويت بتاريخ ٢٠٠٩/٢/١ - على إصدار معجم البابطين لشعراء العربية في القرون الخمسة المشار إليها أعلاه. وفي اجتماع مجلس الأمناء المنعقد بدمشق بتاريخ ٢٠١١/١١/٢٢ قرّر المجتمعون تدقيق اسم المعجم الجديد بحيث يكون «معجم البابطين لشعراء العربية في عصر الدول والإمارات» وتدقيق المنطلق الزمني بحيث تكون البداية سنة ١٢٥٨ م وتكون النهاية سنة ١٨٠٠ م.

وقد بدأ العمل على إنجاز المعجم الجديد واضطلع به فريق المعجم بالكويت وتم الانطلاق فيه بإصدار معجم تجريبي مصغر يضم تراجم ثلاثين شاعراً وتم توزيع هذا المعجم على عدد كبير من أصحاب الخبرة في كامل الوطن العربي وتلقت المؤسسة آراء هؤلاء المتخصصين ومقترحاتهم وردود أفعالهم الهادفة الرامية إلى تجويد المشروع وتدقيق الرؤية وتصويب المرمى.

وسيراً في هذا النهج الذي اتبعتهُ المؤسسة وعملاً بالتقليد الذي أرسته - وهو الإنصات إلى آراء الخبراء - إيماناً بدورهم في خدمة ثقافة الأمة عبر تعبئة جميع الخبرات العربية - فقد تولت المؤسسة دعوة عدد من الخبراء إلى اجتماع أول في دمشق عُقد بتاريخ ٢٣/١/٢٠١١ وتمت فيه مناقشة منهج العمل في المعجم وأبدى كل عضو رأيه وأظهر حججه وتم الاتفاق في نهاية الاجتماع على بعض المقترضات المنهجية الأساسية. ولم تكف المؤسسة بهذا الاجتماع بل دعت مجموعة أخرى من الخبراء إلى اجتماع ثانٍ التأم في القاهرة بتاريخ ١/٥/٢٠١١ استكملت فيه مناقشة أساليب العمل في المعجم، واستثماراً للاجتماعين تمت صياغة وثيقة منهجية إطارية لتحرير المعجم بالاستفادة من آراء الخبراء المتخصصين.

وفي ضوء هذين الاجتماعين أيضاً صدر قرار رئيس مجلس الأمناء بتاريخ ٢٨/٥/٢٠١١ بتشكيل الهيئة الاستشارية للمعجم، تلاه قرار آخر بتاريخ ٣٠/٥/٢٠١١ بتشكيل مكتب تحرير وصياغة له.

وبعد أن تحدد النهج الذي كان ينبغي أن يسير فيه المعجم وتشكلت الهيئات المشرفة على تنفيذه تتابع العمل في ضوء هذه الاختيارات وهذه التوجهات.

٢ - مرحلة جمع المادة:

هذه المرحلة هي المرحلة الأساسية التي توفر للمعجم المادة الخام التي يتقوم بواسطتها، وبما أنّ المعجم استقصائي لا انتقائي، فقد كان على العاملين في إنجازها أن يرصدوا كل مادة تدخل ضمن الفترة الزمنية للمعجم سواء أكانت هذه الفترة محددة واضحة، أم كانت مما يرجح أنّها واقعة ضمن حدود المعجم. وكانت هناك أسماء مفصلة أحياناً للشعراء، وأحياناً أخرى تسميات موجزة تكتفي باللقب أو الكنية. وضمن هذه الطرق المعبدة أحياناً وغير المطروقة أحياناً أخرى، كان العاملون يسعون إلى التوفيق بين سرعة العمل والتأني في بعض المواقف تجنباً للتعثر أو الزلل، وكانت المصادر التي تتضمن المادة الشعرية تتوزع بين الكتب المطبوعة، والرسائل الجامعية، والمخطوطات، والدوريات، وفهارس المخطوطات... وحاول فريق العمل الوصول إلى أكبر عدد ممكن من هذه المصادر، وكان الاعتماد الرئيس على مكتبة البابطين المركزية للشعر العربي، فقد فتحت لنا هذه المكتبة أبوابها وخزائنها الحافلة لنستعير منها ما نشاء، وتم رصد كل ما يتعلق بزمن المعجم من كتب تراجم، ودواوين قبائل، ودواوين أفراد، ومختارات شعرية، وكتب أدب، وكتب تاريخ، وموسوعات، وفهارس، ورسائل جامعية...

وحين ضاقت محتويات المكتبة - على سعتها - بمتطلبات العمل تواصلنا مع بيروت والمغرب والقاهرة والجزائر وغيرها لنحصل على بعض مطبوعاتها، وحاولنا أن نستعين بمساعدين لنا في أماكن بعيدة عنا ولا يمكن أن نصل إلى مصادرها، وتواصلنا مع أكاديميين ومختصين في جنوب الجزائر، وفي جنوب المغرب، وفي إيران، وفي موريتانيا ليوفونا بمواد خاصة بتلك المناطق غير متوفرة لدينا.



مُعْجَمُ الْبَابِطِينِ

لشعراء العربية في عصر الدول والإمارات

أما المخطوطات فلها قصّة أخرى: ذلك أنّه على الرغم من إدراكنا لكون مصادر العصر الوسيط هي في الأغلب مصادر مخطوطة فإنّ القائمين على المخطوطات في الوطن العربي لديهم هاجس الحفاظ على هذه المخطوطات واعتقاد في أنّ أفضل سبل الحفاظ عليها هو حجبها في الغرف المغلقة، لا إتاحتها للباحثين كي ترى الضوء وتعود إلى الحياة من جديد. ولذا وضع عدد من هؤلاء الكثير من الحواجز والعراقيل أمام طلب أيّ مخطوط. ولكننا رغم هذه الموانع تمكّنا من اختراق بعض الأسوار والحصول على مئات المخطوطات، وبقيت مئات أخرى أو آلاف خارج أيدينا. ولم تبخل علينا مكتبة البابطين المركزيّة بتصوير مئات من المخطوطات، وتمكّنا من الحصول على مخطوطات أخرى من مؤسّسة الإمام زيد بن علي الثقافيّة في اليمن، ومن المكتبة الوطنيّة، والخزانة الحسنية ومركز علّال الفاسي في المغرب، ومن مكتبة عبدالسلام الناجم في السعوديّة، ومن المكتبة الوطنيّة في الجزائر.

ولإدراك ضخامة الجهد المبذول في هذا المجال فقد قام فريق العمل بتفريغ قرابة ألف وتسعمائة كتاب مطبوع ورسالة جامعيّة، وبعض هذه الكتب يتضمّن أكثر من عشرين مجلّدًا، وحوالي (١٢٠٠) مخطوطة وقرابة (١٥٨) دوريّة، مع ملاحظة أنّ بعض الدوريّات استمرّ صدورها لعشرات السنين.

وقد كان حصاد هذا العمل الدؤوب (١٤٤، ١٤٤) شاعرًا.

٣ - مرحلة المراجعة الأولى:

استغرقت المرحلة الأولى قرابة ثماني سنوات وأفرزت عددًا من الشعراء يفوق بكثير ما كان توقّعه الدكتور فتوح أحمد الذي قدّم اقتراح تصور عمل المعجم وحدّد عدد شعراء الفترة بما بين ألفين إلى ثلاثة آلاف شاعر.

وقد كانت هناك مراجعة أحيانًا لبعض الملفات يقوم بها فريق العمل في الكويت واستغرق جمع المادة معظم أوقات عمل الفريق، وعلى أساس المراجعة الأولى في الكويت تمّ حذف ثمانئة ملفّ.

وارتأت المؤسّسة أنّ المراجعة تحتاج إلى جهد فريق عمل متخصصّ مستقلّ فأنشأت مكتبًا في الإسكندرية، وتعاقدت مع مجموعة من الباحثين من حملة الدكتوراه والماجستير في الأدب العربي بلغ عددهم قرابة ثلاثين باحثًا وابتدأت المراجعة بتاريخ ٢٠١٥/٨/١ وانتهت بتاريخ ٢٠١٨/٣/١.

وكانت القرارات المتخذة بحذف الملفّ أو بتوحيده مع ملفّ آخر تتخذ بالتشاور بين فريق العمل في الإسكندرية والمستشار الفنيّ للمعجم في الكويت، ووصل عدد المحذوف من الملفات - نتيجة لهذه المراجعة وما سبقها - إلى (٤٦٤٤) ملفًا، وهو عدد يقارب ثلث العدد المنجز من الملفات.

- ويعود ارتفاع عدد المحذوفات إلى عدّة أسباب، منها:
- أنّ الجمع كان يتمّ للمتيقّن منه وللمشتبه به حرصاً على عدم إضاعة أيّ شاعر، ولكنّ المشتبه به أُلّ كثير منه - بعد التحريّ - إلى الحذف.
- كما أنّ طبيعة الأسماء في هذا العصر واتخاذ الاسم صيغاً متباينة أدّى إلى تسجيل الشاعر في أكثر من ملفّ حتى تبيّن عند التدقيق ومن خلال الأدلّة أنّ هذه الصيغ تعود إلى شاعر واحد.
- هذا، بالإضافة إلى أنّ مرحلة الجمع اتّسمت غالباً بسرعة الأداء، وهذه السرعة لا بدّ أن يصحبها بعض التعثر، وأنّ تعثري العمل بسبب منها بعض الشوائب.

٤ - مرحلة التحرير:

تعاقدت المؤسسة مع عدد من الأكاديميّين في مصر للقيام بتحرير الملفّات بعد مراجعتها، وقد ساعد كلّ محرّر مراجعٌ يعيد النظر في المادة المحرّرة لتلّا يشوبها أيّ نقص أو خلل. وقد طُلب من المحرّرين الالتزام بمنهج التحرير الذي حدّدته المؤسسة لكي يكون هناك نسق موحد يشمل جميع الملفّات المحرّرة بما يضمن وحدة الأسلوب ويسهم في جعل مقوّمات الصياغة منسجمة.

وقد تساقق العمل في التحرير مع الفترة الأخيرة من المراجعة الأولى وتمّ الانتهاء منه في شهر فبراير (فيفري) من عام ٢٠١٨، وشارك بعض أعضاء مكتب الإسكندرية من الباحثين في تحرير الملفّات ذات المادة الخفيفة وتمّ التأكّد من انسجام تحاريرهم مع الأسلوب العامّ الذي اتّسم به تأليف المادة.

٥ - مرحلة المراجعة النهائية:

وحرصاً من المؤسسة على تجاوز مظاهر النقص والخلل في كشوف التحرير، وعلى أن تكون هذه الكشوف منسجمة ومتساوقة مع منهج التحرير، فقد كلّف المستشار الفنّي للمؤسسة بالقيام بالمراجعة النهائية لجميع كشوف التحرير وساعده في ذلك الباحثان في المؤسسة أ. مناف الكفري، وأ. محمود البجالي، وتمّت هذه المراجعة بالاستناد إلى التحريّ من ملفّ كلّ شاعر بحيث يتمّ التأكّد من المعطيات والمقتضيات التّالية:

- استيفاء بيانات ترجمة الشاعر دون نقص أو خلل.
- التأكّد من نسبة النصوص المختارة إلى الشاعر، وحذف النصوص التي نسبت خطأ إليه.
- مطابقة النصوص في كشف التحرير لما هي عليه في المصادر دون أيّ تغيير.
- الحرص على أن تكون القطعة المختارة من نصّ طويل متتابعة الأبيات دون ثغرات.



مُعْجَمُ الْبَابِطِينِ

لشعراء العربية في عصر الدول والإمارات

- استكمال ضبط ما هو ضروري بالشكل وإزالة التصحيف وتصحيح ما في الضبط من خطأ.
- إضافة نصوص جديدة إلى الكشف لم تكن متاحة للمحرر، أو أن المحرر أغفلها من أجل إعطاء كل شاعر حقه في الحجم المقرّر بحسب أهميته ومدى توافر شعره.
- الرجوع في القوائد المخطوطة إلى الأصول لتلافي القراءات المخطئة.
- ضرورة أن تنتخب النصوص من المصادر الأصلية لا من المصادر الثانوية.
- النظر في الهوامش وحذف ما هو غير صحيح بسبب القراءة المخطئة للبيت أو الاعتماد على مصادر غير دقيقة، وإضافة هوامش تتطلبها بعض العبارات.
- النظر في القوائد الموجودة في أكثر من كشف والتحقق من النسبة الصحيحة للنص.
- التثبت من الأسماء المتقاربة أو المتماثلة، وتوحيد ما هو عائد إلى شاعر واحد أو أكثر من كشف.
- جمع كشوفات أفراد العائلات الأدبية التي تكثر فيها الأسماء المتشابهة والمقارنة بينها لتجنب التداخل بين الكشوف في التراجم أو النصوص.

وقد استغرقت هذه المراجعة الشاملة أكثر من عام، وكانت نتيجتها حذف (٢٢٢) ملفاً للتوحيد بين بعض الملفات، أو لكون المترجم له قد تبين أنه ليس شاعراً، أو لأن صاحب الملف يقع خارج الفترة الزمنية للمعجم. كما تم العثور على عدد آخر هام من الشعراء من خلال تدقيق الأوراق العائدة إلى كل ملف وإخراج الأوراق التي لا تخص المترجم له، مما مكّن من إضافة (٨٩) شاعراً تم تحرير ملفاتهم بشكل مستأنف. وبعد، فقد انقضت عشر سنوات كاملة تؤرّخ لسيرة هذا المعجم، تم فيها بذل جهد غير مسبوق لإحاطة بقارة شعرية مترامية الأطراف وعالم ممتد مكاناً وزماناً، ومكّن هذا الجهد من إضاءة جوانب من هذه القارة وأطراف من هذا العالم، وبقيت أطراف وجوانب أخرى في أسر الظلام.

ثانياً: الصعوبات والتحديات:

كان الانتقال بالعمل المعجمي من العصر الحديث إلى العصر الوسيط بمثابة انتقال من السهل إلى الصعب، ومن المضاء إلى المعتم. وكان هذا الانتقال يتضمّن في الوقت نفسه إشكاليّين متلازمين: الانقطاع، والتواصل؛ الانقطاع بين عصريين مختلفين بل متناقضين، والتواصل بين تراث شعري يمتلك - وإن اختلفت الأزمنة - جذوراً مشتركة وقواعد ثابتة تتفرّع منها الظواهر وتظلّ تذكر بها.

فبينما تميّز العصر الحديث بسمات الانفتاح والرغبة في التغيير واهتزاز المسلّمات القديمة والبحث عن طرق جديدة للفكر والإبداع واختبار مناحي قول غير مكرّسة، كان العصر الوسيط، على النقيض، عصر انعزال ومحافظة على القيم والثوابت وإعادة إنتاج للمخزن الثقافي الموروث.

وقد عكس هذا المجتمع الراكد المعزول سماته على المشهد الثقافي ووسمه بها. ويمكن أن نرصد أبرز ملامح المشهد في هذه الفترة على النحو التالي:

أ - المراجع الأساسي لهذا العصر هي المخطوطات التي حُقِّق منها العدد اليسير وبقي العدد الأكبر دون تحقيق. والمخطوطات تضع أمام الباحث الكثير من العوائق التي من أبرزها: أنها متناثرة في المكتبات العامة والخاصة على امتداد العالم، لم يضمَّها مركز واحد يسهل الوصول إليه، ولم يوضع لها إلى الآن فهرس موحد يجمع بين دفتيه التعريف بها، بل إن كثيراً منها لم يُفهرس حتى الآن. ومن هذه العوائق أنّ الحصول على هذه المخطوطات - وخصوصاً في البلدان العربيّة - تقف أمامه موانع كثيرة، والحصول عليها من مراكز غير عربيّة له تكلفة عالية، ممّا يجعل الكثير من المخطوطات خارج السيطرة، ويجعل أيّ بحث أو عمل معجمي منقوصاً محدوداً قاصراً عن أن يبلغ درجة الشمول.

ومن هذه المصاعب أنّ قراءة بعض المخطوطات عسيرة أحياناً لرداءة الخطوط التي كتبت بها، أو لما فعل بها طول الزمن وسوء العناية من طمس أو نقص أو خرم أو تداخل.

ويضاف إلى هذا احتراف عمل النسخ من قبل أناس لا يمتلكون أدنى درجات المعرفة بعلوم اللغة العربيّة، ولا يفهمون الشّعر، وهو ما يلحق بالمخطوط الكثير من التصحيف والتحريف، بحيث يتحوّل أحياناً إلى صورة مشوّهة عن الأصل.

ومن ذلك ما يقتضيه ضعف التواصل بين أرجاء العالم العربي، وبطء انتقال المعلومات من تضارب في محتوى هذه المخطوطات، يتمثّل في نسبة أشعار إلى غير قائلها، واختلاف في صيغ الأسماء وفي التواريخ وغيرها. ولم تقتصر هذه الثغرات على المخطوطات بل هي تتسحب أيضاً على بعض ما حُقِّق منها من قبل أفراد لا يمتلكون ما يحتاجه التحقيق من خبرات ومعارف ممّا يفرض على الباحث اتّخاذ أقصى تدابير الحذر في التعامل مع المخطوط وعرض أيّ معلومة منه على محكّ النقد الصارم.

ب - لم يسلم هذا التراث الثقافي الخصب الذي يمثّل إسهام العرب في الإرث العلمي من عوادي الإنسان وغوائل الزّمان، فوحشيّة الإنسان وتعصّبه الأعمى كان لهما دور في اجتثاث جانب من هذا التراث، ويكفي أن ننظر إلى ما فعله المغول عند دخول بغداد، وما فعله الإسبان عند دخول حواضر الأندلس؛ إذ لم يكتف هذان المنتصران باستباحة البشر بل أردفوا ذلك باستباحة ما خلفه من تراث لأنّ هذا التراث يمثل الحضور المستمرّ للإنسان. وهكذا فقدت المكتبة العربيّة قسطاً كبيراً من مخزوناتا بواسطة التمزيق والحرق وشتّى أساليب الإتلاف المتعمّدة.

ولم يكن الغزو الخارجي العامل الوحيد في هذا التدمير للتراث، بل أسهم العرب أنفسهم، من خلال الاضطرابات التي حفل بها تاريخهم وبفعل التعصّب المذهبي، في إتلاف الكثير من المخطوطات، أضف



مُعْجَمُ الْبَابِطِينِ

لشعراء العربية في عصر الدول والإمارات

إلى ذلك ما اتّصف به حرّاس خزائن المخطوطات من الجهل، وانعدام الأمانة، وعدم اتّخاذ وسائل الحماية اللازمة للمخطوطات وتسريب عدد كبير منها إلى مكتبات خارج الوطن العربي. وقد كان من نتائج دخول البلاد العربيّة تحت الهيمنة العثمانية ثمّ تعرّض الكثير منها إلى الحماية أو الاستعمار الغربي أن نقلت آلاف المخطوطات إلى مكتبات تركيا أو بلدان أخرى.

وهكذا، فإنّ ما سلم من التراث المخطوط قد تشتّت بين مكتبات العالم، فأصبحت الإحاطة به في أيّ عمل معجمي شامل من الصعوبة بمكان، بل و أقرب إلى الاستحالة.

وإذا كان على الباحث أن يهتمّ بما بقي من التراث، فإنّ عليه في الوقت نفسه ألاّ يغفل ما غاب منه، لأنّ من أبدعوا هذا التراث الغائب قد أسهموا كغيرهم في بناء الإرث الضخم الذي يمثّل أحد أبرز ملامح الهوية العربيّة وأحد أهمّ مكّوناتها.

ج - أدت صعوبة التواصل بين الأرجاء الشاسعة للمجال العربي الممتدّ من حواضر الأندلس إلى شواطئ بحر العرب، ومشاقّ السفر والتنقل بين هذه الأرجاء، في زمن افتقدت فيه السلطة المركزيّة القدرة على التحكم في هذا الكيان الواسع وتوفير الأمن في بقاعه، كما انعدم فيه ما توفّر في العصر الحديث من سجلّات للمواليد والوفيات، ومن صحف ومجلّات تتابع الأحداث وتعكس كالمراة صورة للمجتمع بكلّ مشكلاته وأخباره وشخصيّاته، وتقلّباته، فأدّى ذلك كلّ إلى ندرة المعلومات، بل وإلى تضاربها أحياناً.

وإذا كانت أنظار المؤرّخين متوجهة غالباً إلى الأحداث السياسية البارزة، وإلى أخبار الملوك والسلاطين فإنّ الأحداث الثقافيّة وأخبار المبدعين - عدا المشهورين منهم - قد ظلّت خارج التغطية أي قليلة الحظّ من التوثيق؛ ففي أمّهات الكتب الأدبيّة ترد أسماء لأدباء وشعراء كثير لا نجد لهم أيّ ترجمة أو تعريف في أيّ من كتب التراجم، بل ولا نتمكّن أحياناً من تحديد الفترة الزّمنية التي عاشوا خلالها.

ولا تحفظ كتب التراجم سوى معلومات قليلة عن كثير من الأدباء، لذلك فإنّ تراجم أعلام هذا العصر تبقى في كثير من جوانبها مجهولة أو غير واضحة الملامح.

وإذا نظرنا إلى التواريخ رأينا أنّ من حُدّدت سنوات ولادتهم وضبطت تواريخ وفياتهم قليلو العدد، ويأتي بعدهم من عُرف له تاريخ واحد، وهناك كثرة افتقدت هذا التحديد، ولم يُعرف عن تاريخها سوى القرن الذي عاش فيه أصحابها من خلال معاصرتهم لأحد الملوك أو السلاطين أو لأحد الشعراء المشاهير أو أيّ قرينة أخرى. وهناك شعراء لم يعرف من تاريخهم سوى سنة من السنوات أرخوا بها أحد كتبهم، أو عاصروا فيها حدثاً من الأحداث، أو رثوا فيها أحد المتوفّين علمًا بأنّ هذا الفقر في المعلومات وفي التواريخ هو من سمات هذا العصر.

د - بخلاف العصر الحديث الذي اكتسبت فيه الأسماء صيغاً محدّدة ثابتة وموجزة تقتصر على اسم الشاعر واسم أبيه ثم نسبه الوحيد غالباً، وقلّت فيها الألقاب والكنى أو انعدمت، فقد شهد العصر الوسيط ما يمكن أن نعتفه بفوضى التسميات، فلكلّ علم لقب وكنية، وأحياناً أكثر من لقب وكنية، والاسم يمتدّ أحياناً عبر سلسلة طويلة من الأسماء، وتختلف المصادر في ترتيب هذه الأسماء أحياناً، ويُختم الاسم بمجموعة كبيرة من الأنساب: فهناك النسب إلى القبيلة، وهناك نسب إلى البلد الذي نشأ الشخص فيه، وإلى البلدان التي تنقل فيها. وهناك نسب إلى الصنعة، ونسب إلى المذهب أو إلى المذاهب التي انتمى إليها، ونسب إلى الطائفة، ونسب إلى القطر، أو إلى الأقطار التي جال فيها، وهذا الاسم قد يُذكر مطوّلاً أحياناً أو مختصراً أو باللّقب أو بالكنية فقط، وقد تذكر الأنساب جميعها أو يذكر بعضها فقط.

وإذا عرفنا أنّ هذه الألقاب والكنى والأنساب قد تتقاطع وتتداخل فسنعلم المتاهة التي يمكن أن يجد الباحث نفسه فيها ليتأكد من هويّة العلم المذكور. وبالإضافة إلى ذلك فإنّ بعض العائلات الأدبية تتكرّر فيها الأسماء (وبخاصة اسم محمد) والألقاب، ممّا يؤدي إلى التداخل في التراجم وفي النصوص أحياناً، ويضع أمام الباحث صعوبة فعلية في التمييز بين أفراد هذه العائلة. ويزيد من هذه المصاعب ما تحفل به بعض المخطوطات من تصحيف وتحريف في بعض الأسماء، ممّا يكلف الباحث عناءً إضافياً للتحقق من صحّة الاسم.

هـ - وإذا كان التحقق من نسبة النصوص إلى أصحابها في العصر الحديث مسألة غير مطروحة، فإنّ هذه المسألة في العصر الوسيط لا تزال تثير بعض الإشكالات، فالبعد المكاني والزمني بين المدوّن وصاحب النصّ، وفقدان الكثير من وسائل التثبّت يجعل المدوّن غير قادر على التمييز أحياناً بين من يتمثّل بالشعر ومن ينظمه فتسبب في بعض المصادر نصوص إلى غير أصحابها، ممّا يفرض على الباحث مهمّة التحقق من النسبة والحذر من النصوص التي لم تنقل مباشرة عن أصحابها. وهناك بعض المصادر تسبب قصيدة ما إلى أكثر من شاعر، وفي هذه الحالة يجب البحث عن القرائن التي تحدّد النسبة الصحيحة للنصّ، ومن هذه القرائن الفترة الزمنية التي عاش فيها الشاعران وأيّهما الأسبق، وهل نقل النصّ عن الشاعر مباشرة، أم ورد في مصدر محدّد، وما تاريخ تأليف هذا المصدر؟.

ثالثاً: الخطة والتمشي المنهجي:

حرص الخبراء الذين صاغوا التصرّح الأوّلي للمعجم وسعوا إلى تجسيمة، بمناسبة إصدار المؤسّسة لأوّل عمل موسوعيّ يهدف إلى التوثيق الكامل للشعر (ونعني معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين) ثم إنجاز (معجم البابطين لشعراء العربية في عصر الدول والإمارات) على أن يتخذ هذا العمل هيئة «المعجم».



مُعْجَمُ الْبَابِطِينِ

لشعراء العربية في عصر الدول والإمارات

ولا يخفى على أهل النظر أنّ مفهوم «المعجم» الذي تمّ استخدامه في هذا العمل الضخم وفي العمل السابق له هو مفهوم المسرد الموضوعاتي المتمحّض للتعريف بالأعلام المتخصّصين الذين يجمع بينهم حقل من حقول الفكر أو الفنّ: هو هنا حقل الشعر. وهو أمر له مرجع ومستند في التراث التأليفي العربي يتمثّل في «معجم الشعراء» للمرزباني أساساً، مع فارقين - كمّيّ ومنهجيّ - يتمثّل أولهما في اتّساع دائرة الاهتمام اتّساعاً كبيراً وفي الحرص على الشمول حرصاً جسّمه المعجم في استضافة كلّ ذي نظم شعريّ من أعلام هذا العصر الممتدّ وفضائه الجغرافي الشاسع، سواء في ذلك من اشتهروا بالشعر أو من اشتهروا بغيره، وهو ما ترتّب عليه أن اعتنى المعجم بشعراء بارزين في الشعر مكرّسين أعلام (مثل: المعتمد بن عبّاد، وصفيّ الدّين الحلّي، وابن زمرك...) كما اعتنى بأعلام مكرّسين بارزين في مجالات ليست بذات علاقة بالشعر (كابن بطوطة، وابن حجر العسقلاني، وابن خلدون...) وهذا من نتائج الهاجس الاستقصائيّ طبعاً.

وأما الفارق المنهجي بين معاجم الشعراء القدامى ومعجم البابطين لشعراء العربية الذي بين أيدينا فيتمثّل في صياغة واضعي هذا المعجم لشبكة منهجيّة موحّدة تستحضر ترجمة الشاعر وعيّبات ممثّلة من شعره وتتضمّن الخانات التالية:

- اسم الشاعر المشهور به (أو كنيته أو لقبه).
- ميلاده ووفاته.
- عصره وزمانه.
- أبرز عناصر شهرته.
- تكوينه ومدرسه.
- نشاطه الأساسي.
- أحكام النقاد على شعره ومؤلفاته ومكانة شعره منها.
- مصادر ترجمته.
- منتخبات ممثّلة لشعره وشاعريّته.

ومن المبادئ الجامعة في استحضار الشعراء في المعجم الحجم المعطى لكلّ شاعر، وقد التزمت المؤسّسة في هذا الشأن بأن يكون الحدّ الأقصى من المساحة المخصّصة لكلّ شاعر هو ستّ صفحات للشعراء المشهورين بينما يتراوح الحجم بين ثلاث وأربع صفحات للشاعر المتوسّط والصغير.

وأما المقولون الذين لم يبق ممّا قالوا إلاّ القليل، فيكتفى بما توفّر من معطيات عنهم وعن أشعارهم وإن قلّت. فمن المنطقيّ أن يكون حجم الترجمة من حجم الشاعر ومن كمّ ما وصل إلينا من شعره.

وقد ترتب على اعتبار المادّة الشعريّة الممتدّة على القرون الخمسة التي شملتها عناية المعجم وترتيب الشعراء في نطاقها على أحرف الهجاء أن تضمّنت كلّ مادّة حرفيّة جماعة كبيرة من الشعراء موزّعة على كامل الفترة التاريخيّة الطويلة التي يشملها المعجم بحيث أضحى كلّ سفر من أسفاره معجمًا مصغّرًا مجسّمًا تجسيماً جزئياً ذا قيمة تمثيليّة كبيرة بالنسبة إلى الموسوعة الكبرى الجامعة الشاملة التي يمثّلها المعجم في تمامه وكماله. وممّا تجدر ملاحظته أيضاً، في شأن الخطّة والمنهج، هو أنّ المعجم الحالي قد أنجز على خلفيّة المعجم السّابق (معجم البابطين لشعراء العربيّة في القرنين التاسع عشر والعشرين) وأنّ حيثيات كثيرة من متعلقات المعجم الحالي يمكن توضيحها بالقياس إلى الإنجاز السّابق: ائتلافاً واختلافاً، توتّر في كليهما المقوّمات النوعيّة للمدونة والخصائص المميّزة لكلا العصرين... وهما عصران يقفان على طرفي نقيض. وممّا لا بدّ منه أن يستدعي هذا التناقض تغييراً في الأسلوب وفي الإجراءات، ولكنّ تجربة المؤسّسة، وهي تتعامل مع الشّعْر لفترة طويلة، وما تراكم لديها من الخبرة التي اكتسبتها من إنجاز معجمين شعريّين قد رسّخا لديها ثوابتاً وقيماً يمكن أن تسري على كلّ إنجاز قادم.

ومن هذه الثوابت الحيّز المكاني للمعجم الشعري، فالمؤسّسة لم تتحصر في معجمها السابق بالإطار الجغرافي العربي بل التزمت بدلاً منه بإطار اللّغة العربيّة، فهذه اللّغة التي جعل منها القرآن لغة مقدّسة اجتذبت الكثير من المثقفين المسلمين ليأخذوا منها لغة تأليف ونظم شعري، وانفتاح المعجم على عشاق اللّغة العربيّة والمبدعين بواسطتها من غير العرب دليل على تأثير هذه اللّغة وجاذبيّتها، وإثراء للإنجاز الشعري بالروافد التي تصبّ فيه من مختلف الأمصار والأقطار.

وللمؤسّسة موقف ثابت من اختيار قصائد الشاعر، فهي تحرص على أن تكون هذه القصائد متنوّعة المضامين والصياغة، وأن تخلو من كلّ ما يثير التعصّب الديني أو العرقي، أو يميل إلى الفجور، أو إلى الطعن في المعتقدات والمذاهب، أو التهجّم على الأشخاص والرموز؛ وهذه مبادئ عامّة تبنّتها المؤسّسة في كلّ فعالياتها إيماناً منها بأنّ على الشعر - وهو سيّد الفنون عندنا - أن يكون رسول سلام ومحبة بين فئات المجتمع في كلّ قطر وبين شعوب العالم في كلّ مكان.

والمعلم الأخير من ثوابت المؤسّسة - في مستوى التوثيق - هو ترتيب الأسماء في المعجم وفق التسلسل الهجائي لاسم الشهرة مع اعتبار جميع أحرف الاسم الأوّل دون إهمال أي حرف.

وإذا كانت هذه الثوابت قد أصبحت لدى المؤسّسة ميثاق تأليف وأضحت مبادئ عامة تهيم على كلّ مسيرتها فإنّ طبيعة العصر وما يميّز به من سمات فارقة، والتباين في الأجواء الثقافيّة بين العصرين



مُعْجَمُ الْبَابِطِينِ

لشعراء العربية في عصر الدول والإمارات

(الحديث والوسيط)، قد حتمت على فريق البحث إجراءات خاصة بهذا العصر تتلاءم مع ما يتفرد به، ومن هذه الإجراءات:

١ - الانتقال من العمل الميداني إلى العمل البحثي، فالمعجم السابق تضمن غالبية من غير المشهورين الذين لم تولهم وسائل الإعلام الاهتمام اللازم، وكان السبيل الوحيد للوصول إلى سيرهم ونتائجهم هو التعرف على أصدقائهم وأقربائهم الذين احتفظوا بالكثير من ذكرياتهم والكثير مما أبدعوه.

لذا تكوّنت فرق من الباحثين في عموم البلدان العربية للاتصال بهؤلاء والتعرف من خلالها على صورة الشاعر الغائب، أمّا في المعجم الجديد فالبعد الزمني قد قطع الصلة مع الأحياء ولم يبق من صلة مع هؤلاء الراحلين سوى ما خطّوه بأيديهم وما حفظته المکتبات أو نقلته بعض المطبوعات. وقد تحمّل هذه المهمة باحثو المؤسسة في الكويت الذين تقبّوا في كلّ ما وصل إلى أيديهم من مطبوع ومخطوط ليستخرجوا منه التعريف بهؤلاء الراحلين.

٢ - تخلّى المعجم الجديد عن الشرط الذي وضع في معجم القرنين لئلا بموجبه الشاعر حقّ الدخول إلى المعجم وهو أن يكون له قصيدة واحدة على الأقلّ، فسُمح بالوجود في المعجم الجديد لكلّ من أوردت له المصادر أبياتاً قليلة، ولو بيتاً واحداً، أو لمن ذكرت المصادر أنّ له شعراً أو نظماً ولم تورد له شيئاً من ذلك. وهؤلاء المقلّون بلغوا من الكثرة قرابة نصف عدد شعراء المعجم، ذلك أنّ هذا المعجم هو الوحيد بين معاجم المؤسسة الذي ذهب في خاصية الاستقصاء للحركة الشعرية إلى حدودها القصوى، فالمعاجم السابقة كان الاستقصاء فيها ناقصاً؛ إذ أنّ وضع المعيار الفني شرطاً للدخول في معجم المعاصرين، وفي معجم القرنين استثنى الكثير من الشعراء الذين لم يملّكوا الحد الأدنى من النضج الشعري. وقد تمّ التخلّي عن هذا المعيار في هذا المعجم الحالي، مراعاة للمناخ الثقافي في هذه الفترة الممتدة؛ إذ افتقدت لدى الكثير من صنّاع الكلمة الخبرة اللغوية الكافية.

وقد يعترض البعض على هذا النهج بحجّة أنّ هؤلاء لا يمكن أن يعدّوا شعراء، ولو كان لهم من النتائج ما يؤهّلهم لهذه الصفة لم تغفل المصادر شعرهم. والردّ على المعترضين يتمّ من خلال معاينة الواقع الشعري لذلك العصر؛ فقد أودت الحروب والنكبات بجانب كبير من الإرث الشعري، وما تبقى منه أودى به الجهل والجشع في شتّى بقاع العالم، ولا يمكن لأيّ باحث منصف أن يغفل هؤلاء الذين ظلمتهم وحشية الإنسان فأحرقت كتبهم، أو استهان بهم الجشع فباع حبات قلوبهم بدراهم معدودة لكي تتغرّب في أرجاء الأرض. واعترافاً بفضل هؤلاء الذين أعدم نتائجهم أو غاب عن أعين الباحثين، كان لا بدّ من مساواتهم بمن أسعفتهم الظروف فاحتفظت بشعرهم؛ إذ لا يمكن أن يحمل هؤلاء تبعات حقد الإنسان وجشعه.

وإنّ تدوين أسماء هؤلاء الشعراء، بالإضافة إلى فضيلة تقديرهم، لهو بمثابة وضع علامات على طريق البحث العلمي، فالبحث العلمي هو عمل متنامٍ متطورٍ ليست له نهاية، وإنّما مشروع مفتوح دائماً على ما بعده مفض إلى الأعلى فالأعلى، وما جاء في المعجم ليس نهاية الطريق بل هو لبعض من ذكروا فيه بداية الطريق، فليس بإمكان باحث أو مجموعة باحثين أو مؤسّسة ما أن تحيط الإحاطة كلّها بجميع الإبداع الشعري المتناثر على امتداد مكتبات العالم، وبعضه غير معروف إلى الآن.

وإنّ هؤلاء الشعراء الذين ما زال نتاجهم مغيباً، هم مسؤوليّة الباحثين القادمين لكي يسيروا بعملية البحث إلى نهايتها الناجحة، ويحقّقوا أقصى ما يعلّق عليها من آمال.

٢ - ومن الإجراءات الجديدة السماح لأصحاب المنظومات العلمية بدخول المعجم، وقد استُتِنوا من المعجم السابق. والمنظومة العلميّة تثير اعتراضاً أكبر، فكثير من النقاد لا يعدّون هذه المنظومات شعراً؛ إذ أن ما يربطها بالشعر يقتصر على مقوّم واحد تقريباً هو الوزن، في حين تفتقد المنظومة عناصر الشعر الأخرى، وأهمّ من ذلك أنّ خلّوها من الشاغل الجمالي يفقدها روح الشعر.

وقد شهدت المنظومات العلميّة ازدهاراً كبيراً في العصر الوسيط، حيث أصبح الحفظ هو السمة الغالبة على المثقفين. ومساعدة لطلاب المدارس التقليديّة على حفظ المقرّرات الرئيسيّة فقد نظمها بعض العلماء شعراً لتكون ميسّرة لاختزانها في الذاكرة.

والمبرّر للقبول بالمنظومات العلميّة - مع الإشارة إلى ذلك أمام كلّ شاعر من هذا الصنف - أنّ نظم الشعر قد أصبح شائعاً لدى النخبة الثقافيّة في مختلف صنوفها من فقهاء ومحدّثين وقضاة وحكّام وقواد وكتّاب دواوين، وأنّ البعض ممّن لم يصل إلينا من نتاجهم سوى منظومات علميّة قد يكون لهم شعر لم يصل إلينا، فوضعهم على القائمة هو كونهم شعراء مقدرين أو محتملين، وهو أيضاً تحقيق لهدف المعجم في استقصاء كلّ أصحاب الفعاليات الشعريّة.

٤ - اقتضت ندرة التواريخ المحدّدة في العصر الوسيط والرغبة في عدم إغفال أيّ شاعر، القبول ببعض المجازفات في التواريخ، فقد قبلنا في المعجم كلّ ما ذكر أنّه من أهل القرن السابع أو عاصر أحد شعراء القرن السابع ولم نعثر على تاريخ محدّد للوفاة، كما قبلنا من له تاريخ ميلاد فقط ويبعد عن بدء المعجم قرابة مئة سنة أو أقل من ذلك، أو كان حياً قريباً من حافة نهاية المعجم، ما دمنا لم نعثر لهم على تاريخ وفاة مع احتمال أن يكون هؤلاء توفّوا خارج نطاق المعجم. وهذه مجازفات لا يوجد في ما تحت أيدينا من المصادر ما ينقضها.



مُعْجَمُ الْبَابِطِينِ

لشعراء العربية في عصر الدول والإمارات

٥ - اقتصرنا من المنظومات العلميّة - بسبب ما فيها أحياناً من ركاقة وضعف وتعثر - على أبيات قليلة، وكذلك اكتفينا من نتاج الشعراء الكثيري الزلّات بأبيات قليلة اخترناها من أفضل أبيات الشاعر لأننا لا نريد أن نرهق القارئ بمعاناة شعر افتقد أدنى درجات الشاعريّة.

على أنّ رغبة المؤسّسة في أن يحيط هذا المعجم بأطراف المشهد الشعري في العصر الوسيط لم تتحقّق كاملة؛ إذ لا تزال ملامح من هذا المشهد غائبة عن الحصر، ويعود ذلك إلى اتّساع مدى هذا العصر الزمني وتشتّت ما بقي من تراثه ممّا لا يمكن لأيّ كان أن يحيط به بالكامل. وقد كانت الرغبة في أن يخلو هذا المعجم من الأخطاء، وبخاصّة الفاحشة منها، جادّة، واستنفذ الباحثون الجهد في توحيد كثير من الملفات العائدة إلى شاعر واحد، وفي حذف ملفات أخرى لأسباب متعدّدة، وإلغاء قصائد ليست للشاعر، وفي تعديل بعض التراجم وغير ذلك... ولكن بالرغم من كلّ هذا الجهد فإنّ احتمال الخطأ لا يزال وارداً محتملاً؛ فتعقيدات العصر الكثيرة والتباين في المصادر، وما يلحق بالمخطوطات من تصحيف وتحريف، كلّ ذلك يجعل من توحّي النقاء الكامل مطلباً مستحيلاً. ونحن إذ نعتذر عن أيّ خطأ غير مقصود، فرجاؤنا ممّن يلتقطه من نقاد وقرّاء أن ينظر إليه بعين العطف والتبنيه لا بعين التشهير، لأنّ كلّ عامل خطأ...! والرغبة الأخيرة أن يكون هذا المعجم - بما تمكّنت المؤسّسة من تحقيقه - نقطة انطلاق لمتابعة البحث والكشف في هذا العصر الذي لم يلق من الاهتمام القدر الكافي، لأنّ ما كشفناه منه لا يلبي جميع طموحاتنا ولا كلّ ما يرغب فيه عشاق التراث.

ماجد الحكواتي

المشرف على المعجم

(مؤسسة عبدالعزيز سعود البابطين الثقافية)
